لغة العود والحجر

عباس مدحت البياتي

مجموعة قصصية من وَرث شعبي

لغة العود والحجر

قصص قصيرة

من الموروث الشعبي سمعتها عن لسان والديّ

الكاتب : عباس مدحت البياتي

إهـــــــداء

أهــدي مجمــوعتي القصصــية المخصصــة للأطفــال والمــراهقين لكــل أطفــال العــالم وإلــى كــل القــراء، فــي تصلح للكبير والصغير مع خالص قبلاتي

مجموعة لغة العود والحجر

1- الصياد والسمكة.....
2- مملكة النساء .....
3- الملك والذهب.....
4- أبن آوى .....
5- الديك والقاضي .....
6- سر السعادة .....
7- حسن كاروب.....
8- فروة السبع .....
9- الأميرة والمؤذن .....
10- الطرائف في استكان الشاي.
11- لغة العود والحجر ...
12- المقصلة
13- الوفاء

1- الصياد والسمكة *

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، رجلٌ من أهل بغداد يُدعى رداد. مزاجيّ الطباع، فظّ اللسان، كثير العناد، هزيل الشأن، قليل الخبرة والخير والزاد. جرّب حظه في صنائع شتى، فما أفلح في واحدة منها، حتى صار مضرب المثل: "سبع صنائع والبخت ضائع".
لم يُرزق ميزة ترفع من قدره، ولا اتخذ قرارًا يُجمل بخته. لا يُحسن الظن، ولا يُجيد التدبير، ولا يسعى خلف الرزق بجدٍّ أو تحضير. منبوذٌ بين الناس، ذليلٌ في نفسه، خائر العزم، عديم الإيثار، متطفلٌ على نعم الميسورين والأخيار. تراكمت عليه الهموم حتى صار في سيره كالمسطول، يُكنّى بين الملأ بـ"الرجل الكسول".
خسر في التجارة، تعثّر في النجارة، ونفر من البناء، فما جنى سوى الخيبة والعناء. وجد نفسه يتكسر في خواءٍ مرير، بين سوط الهوان ومرارة الرجاء. عاند السعي فعانده الزمن، غالى في صبره فقست عليه الأيام، وطاردته المخاوف دون أن يطرأ تغيير في أفق حياته. لم تستعر الغيرة في صدره، وظل يرفأ بكساد العيش وقرقعة هموم الغد، غير آبهٍ لزن الزوجة ولا لمدّ الحياة المتصاعد.
أما زوجته، فكانت من معدنٍ نفيس. صبرت عليه، وتحملت جلد السنين، لحيائها وحسن سيرتها وأصل نسبها. عزيزة النفس، دمثة الخلق، لكنها كرهت خموله وسلوكه المهين. طواها الزمن تحت ظله، فباتت جزءًا من قدره، كأن القدر الذي اصطفاها تحت جناحه، هو ذاته الذي كبّل زوجها بقيوده.

لم تطق جلوسه في البيت، فالبيت ليس مقامًا لرجلٍ قادر. حثّته على العمل، على تجاوز فقره المدقع، على تغيير صورته في عينها وعين المجتمع. ففي الحركة بركة، وفي السكون لعنة. كانت لا تملّ من الزنّ على أذنيه، تشحن طاقته، وتدفعه للمبادرة. فالإنسان، مهما خارت قواه، يحتاج دفعة، حتى لو كانت دون جدوى. فبالأمل تخضر الحياة، وبالنية الصادقة تُفتح الأبواب.

وفي لحظةٍ من لحظات الزنّ، قالت له بحزمٍ وحنان:...

- "يا رداد، إن لم تنهض اليوم، فلن تنهض أبدًا. قم، ولو تعثّرت، فالتعثّر خيرٌ من الركود. غيّر ما بك، فإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. ابدأ، ولو بخطوة، فكل طريقٍ طويل يبدأ بخطوة واحدة. تحرك يا رداد، أبحث عن الرزق في أرجاء البلاد، العمل يجلب لك الحظ، والتقاعس يجعلك تمرض..

- أي عمل يا امرأة؟ لم افلح في البناء والنجارة، وعكيت في الندافة والتجارة.

في لحظة غضب وانكسار، صاحت زوجته: –

- بل إنك كسول وأعمى، ألا ترى حالنا؟ يكفينا صدقة الآخرين، لم أعد أحتمل المهانة والبؤس. أجسادنا باتت ملكًا لأولئك "الأخيار"، استرد عافيتنا وكرامتنا، استرنا من الأعين الزائغة، غدًا ستُحاسب أمام الله ورسوله.

ردّ بصوت خافت، كمن يهمس لنفسه: –

- الأبواب كلها موصدة، لم أجد حظًا وسط ضجيج المنافسة.

قالت له بحدة: –

- بل أنت عنيد، لا تعرف المرونة، لا تعلّق فشلك على شماعة الحظ. الإنسان يصنع حظه بجهده وفكره.

أمامك أعمال كثيرة، جربها، مارسها، اعمل لنفسك ولا تجعل لأحدٍ فضلًا عليك.

تنهد وقال: –

- فكرة جيدة... أعينيني بها، قولي لي: ماذا أعمل؟
- اعمل حطّابًا، فالجو بارد والناس بحاجة للحطب. اعمل زبّالًا، نظّف المدينة من قذارتها، ونظّفنا من قذارتك التي أهلكتنا بها. اعمل صيادًا، دعنا نأكل غذاءً مفيدًا، جلودنا يبست من الفاقة. اعمل أي شيء، المهم أن تعمل ليرحمك الله.

راقت له فكرة الصيد، فيها عزلة وظلال وارفة، فيها خرير الماء وألفة النوارس وطائر النوء والبط والوز... فيها زرقة السماء وحنان الشمس وخضرة الأشجار السامقة. منظرٌ يغريه، ينسيه كسله وهمومه، ويجمل صورته في عيني نفسه.

استقر على فكرة الصيد، فهي لا تكلفه سوى مفازة الطريق. في اليوم التالي، جمع عدته ومضى يطوي الدروب نحو الشاطئ، عسى أن يجد ضالته ويستفيق حظه.

جلس على صخرة عند منعطف النهر، حيث تبطئ المياه، وأخذ يرمي سنارته في عمق التيار. مضى يومه الأول دون أن يهتز خيط السنارة، دون أن تداعبه سمكة أو حتى قشة. قضى يومه سارحًا مع بساط الريح، متنقلًا بين مروج الذاكرة وصور أقرانه الذين سبقوه مناصب وثروة: عمر، علي، حسن، سعد، عادل، كاظم... كلهم ذوو شأن ومكانة، إلا هو؛ بقي يترنح على قارعة الطرق، لا يمسك بيده قشة يكش بها ذباب أنفه.

لكنه قضى يومًا مختلفًا، سعى فيه بصدق النية، اجتهد دون أن يجتهد الحظ معه، دون أن يختصر ذلك المجاز الموحل قيد شعرة. ابتعد عن وخز الملامة، عن قسوة نظرات زوجته التي

تخزق جسده. أقنع نفسه بتكرار المحاولة، عسى أن تفرج عن خيرٍ ينسيه ظلف العيش.
حين عاد خالي الوفاض، قالت له زوجته: –

- استهدِ بالرحمن، صلِّ، اتقِ الله، تقرّب إليه، عسى أن ينير لك دربك ويرحمك. {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}.
- ردّ ساخرًا: – أتظنين ذلك؟ تجاوزت الأربعين ولم أحظَ برزق. أبعد الأربعين سيرفأ بحالي؟ ماذا أفعل به؟ والله لو كان الحظ رجلًا لقتلته. كفي عن خرافاتك.

تركتْه في صمت، لعناده ومخه الصدئ، فلن تغير شيئًا تجلد في القدم. {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، فالله يهدي من يشاء.
في اليوم التالي، عاد لتجربته. جلس على الشاطئ، تتعقب غيرته الطيور الدائرة من حوله، وهي تتبع حظوظها بخفة ورشاقة. راقب طائر النوء والنورس وهما يختطفان السمك من الماء بيسر، وتمنى لو كان له من خفتهم نصيب.
تمنى لو خلقه الله طيرًا، يحظى برزق سهل كما صار يظن، دون أن يدرك أن تلك الطيور تجهد وتكدّ في البحث، تقطع مسارات النهر عرضًا وطولًا، تغوص في الأعماق، وتصارع التيار. قضى نصف وقته متأملًا، ينتظر أن تنفك عقدة حظه المربكة، لكن خيط السنارة ظل ساكنًا، لا يهتز. أصابه الملل، وبدأ يلعن يومه الأسود، فالرزق غافل عنه تمامًا. لم يدرك أن بين الرزق والحظ ألفة، أحدهما يبحث عن الآخر بصمت، وأن العلة ليست في المحاولة، بل في النية والأسلوب.
لقد عجَن حظه بملح الكسل، فالمشكلة ليست في الحظ، بل في عزمه وسلوكه. من تعوّد على الهوان، سهل عليه الهوان.

وقبل أن يحل الغروب، توتر خيط السنارة فجأة. استبشر خيرًا، وابتسم له الحظ ابتسامة صفراء. شاع في وجهه أمل ضعيف، رأى سمكة لا بأس بها تلبط وتلعب قرب السنارة. تأملها، وتمنى أن يُكلل يومه بالنجاح.

راح الأمل يتراقص في عينيه، اقترب من سور ظنه، وشاعت في داخله بهجة خجولة. ها هي ماسة الحظ تلمع في قاع النهر. كبرت أحلامه، مع مغازلة السمكة للطُعم، أنها تدور حول الخيط، أذكت مشاعره بالأمل. لمحها، وقدّر حجمها، فوجدها أكبر مما توقع وتمنى. الحلم أضناه، صار يشعر بلذة السمكة وهي مشوية، غمرت أنفه رائحة الشواء.

غدت لحظات اللين تجامل صبره، تحرق همومه، وتبدد يأسه مع مداعبة السمكة للخيط. آزرته نشوة فرح، وجف في مكانه يتأمل السمكة وهي تحرك الموج بذيلها الفضي، كأنها تحرك لذة الاشتهاء في أعماقه.

صار يكلم نفسه: –" إنها كبيرة، تكفي خمسة أشخاص، جذابة، من نوع الشبوط، أطيب أنواع السمك النهري. يا إلهي، أعني على صيدها. يا لطيف، ألطف بي، دع زوجتي تفرح بصيدي وترضى عني"..

ربما السمكة تمثلت له بالحظ، وربما الحظ تمثل له بالسمكة. ربما الشيطان أغراه، وربما القدر سعى يبحث عنه. كل شيء جائز بين الرغبة والرجاء.

بات يرمي سنارته بعد أن يعبئها بدود الأرض. تارة يتحرك الخيط بفعل الرياح والموج، وتارة تهزه السمكة بذيلها، كأنها تلاعبه وتتحايل عليه. باتت تدور حول الطُعم، تشده برفق، وأحيانًا تداعب الخيط بزعانفها فتشد انتباهه. أضحى يدرك غايتها، وهي تدرك غايته. أصابته نشوة أمل عززت من صبره. مثلما سرّت السمكة بوجود العم رداد بتوفير الدود لها، سرّ هو بوجودها، متأملًا صيدها.

السمكة تتأمل أن يسد رمق جوعها، ورداد يتأمل أن يسد رمق جوعه. كلاهما لا يقوى على المماطلة طويلًا؛ هي بحاجة إلى غذاء يعينها على الحركة، وهو بحاجة إلى رضا النفس ورضا زوجته.
أدركت السمكة خطورة الشص، فسحبت الخيط برفق بفمها من طرفه العلوي، تحاول إيهامه ليسحب الخيط بقوة مفرطة، عسى أن يفلت الطُعم من أنياب الشص. تكررت المحاولة، لكن الحظ لم يستجب لها. بدا الجوع وكأنه يهرس معدتها، فتهاوت قواها واستسلمت لحدة الشص.
بزغت زعانف الشك تشك جسد الطرفين؛ هي هجست بنية الغدر منه، وهو هجس بنية سرقة طُعمه. في محاولتها الأخيرة، أرادت اقتناص الفرصة لخطف الطُعم، لكنها تفاجأت بنتلة قوية لخيط السنارة، لم تستطع الإفلات منها. تعلق الشص بجانب جسدها، لثقل الخيط استقام بفعل حركتها اللاإرادية.
اهتز الخيط في يد رداد، فغمره الفرح بنجاح المحاولة. سحب خيطه بقوة، فارتفعت السمكة فوق سطح الماء، ثم هوت إلى قاع النهر، ليفلت الشص عن جسدها، تاركًا شرخًا بليغًا في جانب بطنها، ينزف دمًا غزيرًا.
لم تكتمل فرحة رداد، ولا اكتملت نية السمكة بسرقة الطُعم. صار يلعن حظه العاثر وقسمته السوداء. سقطت السمكة، مثقلة بالجرح وبثقل جسدها، وبقوة العت التي استخدمها في السحب، دلالة على غشمته وعدم درايته بفن الصيد.
انتشر الدم في المياه، واصطبغت المساحة المحيطة بها بلون قانٍ، صارت عرضة للافتراس من الأسماك الأكبر حجمًا. فرائحة الدم تزكم أنوف المفترسات، ولونه يثير فضولها، يجذبها كما يجذب الضوء الحشرات. بات وضعها ينذر

بالخطر، فهربت تبحث عن ملجأ يكفل لها النجاة. الشر آتٍ لا محالة، وربما يحيط بها دون أن تدركه.
أنزوت بين ثنايا الطحالب والحشائش، خلف الصخور المتراصة في عمق النهر، تحت صرة عتمة تلك الدهاليز والأخاديد والمنعطفات. تبحث عن مأوى يعيلها، يحميها من شر الأسماك الكبيرة. لكن الدماء بقيت تتدفق، والشرخ واسع، لا يندمل. لم يلاعبها رداد كما كانت تلاعبه، لم يراعِ حاجتها، ولم يرأف بها.
علم الصياد بمصابها من بقع الدم المنتشرة في المكان. لا بد لها أن تطفو، بعد أن تفقد جهدها ووعيها. صار يتمعن في أفق النهر، عيناه شاخصتان في كل الزوايا. لا تزال الشمس تدر ضياءها في الأفق، تثير سطح النهر بأشعتها المستطيرة، تشحن ذاته ونيته بطاقة الصبر. لا تزال الرؤيا تسمح له بالمراقبة والمعاينة، ولا يزال في جعبته شيء من الحظ.
فيما احتارت السمكة في سلوكها، لم تعد تحتمل ضعفها. افتقدت توازنها، كلّت، تعبت، واستسلمت لقدرها. لم يخب ظن رداد بمصيرها؛ ها هي تطفو فوق سطح النهر، يتلاعب بها الموج والتيار، يجرفها نحو مصيرها القادم. طفحت على السطح منقلبة على ظهرها، فاقدة الوعي من نزفٍ أرهقها.
بدت عن بعد كخرقة بيضاء تتراقص فوق صفحة الماء، أدركها رداد بنظراته الثاقبة. استعد، خلع ثيابه، ركنها جانبًا قرب الصخرة التي يقف عليها، فهي لا تبعد عنه سوى أمتار قليلة.
الزمن يجري مع جريان النهر، وكلما تأخر في سعيه، اتسعت المسافة بينهما. لم يعد هناك متسع للتفكير، فقفز خلفها، صار يعوم باتجاهها. ها هي أمامه، يكاد يدركها، وقبل أن يمسك بها، أحست بوجوده، فغطست فجأة، واختفت عن ناظره، تدحرجت مع المياه الجارية.

التفت يمينًا وشمالًا، احتار في ظنه، لم تتأخر في غطسها، لكنها ظهرت من جديد على بعد امتار منه، تدحرجها المياه أمامه. سعى خلفها، لا تزال على قيد الحياة، لا يزال فيها رمق يساعدها على المراوغة، متعلقة بخيط الحياة. تراءت له كقشة تهفو بها الأمواج، لحظات احتضار وتشبث بالحياة.
مضى خلفها مسرعًا، يتخبط بذراعيه وقدميه، لا يتقن فن السباحة على أصولها، بدا بدائيًا في عومه. وقبل أن يدركها، غطست مرة أخرى، ربما تكون غطستها الأخيرة. بدت وكأنها لا تريد أن تستسلم له، كأنها تخدعه، تلاعبه، هكذا شرع ظنه يفسر حالتها.
التفت للخلف، فشاهدها تلبط بحركات لولبية بطيئة، كانت أبعد مما كانت عليه. لن يترك رزقه عرضة للأسماك المفترسة، لابد أن ينالها.
انحدرت في المياه الباردة السريعة، فصار يستجير ربه: – كيف سأصل إليها؟ أشعر بالبرد يقرصني، ومع ذلك لن أتراجع. إنه النصيب الموعود، فماذا سأقول لزوجتي؟ كيف أبرر لها خيبتي؟ دعني أفلح أمامها ولو مرة في حياتي، دعني أريها لون الفرح يشع في وجهها...
جالت في ذهنه خواطر شتى، شدّت من أزره، دفعته للأمام. لابد من الإمساك بها بأي حال، رغم عمق النهر وبرودة المياه وسرعة جريانه.
كانت قد أغرته بحجمها، جرجرته خلفها، حتى وصل إلى بقعة صخرية كلسية يصعب المشي عليها. الطحالب التي تفترشها جعلت ملمسها كالصابون، زلقة لا ترحم. ومن جانب آخر، الرؤوس الكلسية الحادة والمدببة كالمسامير، تخزق القدم بشفراتها، تمنعه من الوقوف والمشي. لجريان الماء السريع، ولزلق الطحالب، حكم وقرار لا يُردّ. كل شيء بات ضده، إلا عزيمته التي ما زالت تقاوم.

هكذا استعصت عليه الحالة، فلا مناص من العوم لمجاراة انحدار السمكة، وتفادي المخاطر التي لا تُحمد عقباها. قدر بعدها عنه بعشرة أمتار، ومع مرور الزمن أخذ يقترب منها، يبذل قصارى جهده. ها هي تتراءى أمامه على بعد خمسة أمتار، فلابد من سعي أكبر. شحذ أمله، وآزرته رغبة جامحة للنيل منها. ها هي على بعد خطوتين، الهدف بات قاب قوسين أو أدنى. اندفع بعزم جديد، يسبح بجهد غير معهود، دخل دائرة السيطرة والإصرار والتحدي. أفقدتها قواها، واستسلمت للقدر، لم تعد تملك حيلة للمراوغة أو الغطس من جديد.

غدا الحلم يتلألأ في عينيه كقنديل المساء، السمكة باتت في عداد المنال. هجس بها فكرة تتدحرج بها الأمواج، تنقله إلى مصافي العز والكرامة، يبدد بها خيبته وشكوك زوجته والمغرضين.

طالما خاصمه الحظ، وها هو أمامه يتقمص شكل السمكة، خطوة أخيرة تفصله عن اللقاء به. النجاح والفشل يصاحبانه في ذات المسار، أحدهما أقرب إليه من الآخر. لابد من الظفر بها، فقد ذاق مرارة الفشل مرارًا، وهو سلاح ذو حدين: إما أن يقتله، أو يمنحه دفقة من العزم تقيه مهازل المستقبل.

الفشل تكوّر في ذاكرته كالأرضة في لحاء الشجرة، آفة من الوهم تنهش الذهن، تدور في فلك الفكرة. عليه أن يتجنبه، ويستعيد ثقته بذاته وقدرته.

شد عزيمته خلف السمكة، استند إلى عصا الإرادة، وضوء الفكرة، والقمر بعد أن غابت الشمس. الفرصة مواتية ولن تتكرر. فإن نجح مرة، فلن يعود لدكة الفشل مرة أخرى، ولن يدع مهازل الضعف تغلبه مجددًا.

رغم تعقّد العقدة بينه وبين السمكة، إلا أنه بات يمسك برأس الخيط، لا يفصله عنها سوى متر واحد، سوى خطوة أخيرة لينتشل ذاته من واقع البؤس. لابد من العزم والمجازفة لحسم

الصـراع، فلـن يثنيـه عنهـا سـوى القـدر، ليعـود منتصـرًا كجنـدي عصامي استمد قوته من ضعف موقفه.
انـدفع نحوهـا بقـوة وحـزم، تعلـق برمـق الحلـم المتـدحرج أمامـه، هـفَّ بذراعيــه كمروحــة قــارب تــدفع الميــاه خلفــه... وقبــل أن يخطفهـا، اقتنصـتها سـمكة كبيـرة مـن أمامـه. صـعقه القـدر، تجلّـد فـي مكانــه، خـرَّ صـريعًا أمـام المفاجـأة التـي هـزّت أركانــه. إنــه الصراع من أجل البقاء.
كأنهــا كانــت علــى درايــة بنيّتــه، فنافســته علــى الفــوز بهــا، وأجهـزت علـى أحلامـه، أنهـت فصـول مسـرحيته. إنهـا إرادة الله والحـظ العـاثر، لـم تكتمـل فرحتـه، لـم يفلـح عزمـه، وبقيـت أمـوره معلقة على أعمدة الفشل.
أصـيب جسـده ببـرود تـام، قطّـب جبينـه، هـبط ضـغط دمـه فجـأة تزامنًـا مـع وقـع الصـدمة التـي أرخـت عضـلاته. لـم يعـد يسـيطر علـى ذاتـه، صـار يندفع وسـط التيـار، كمـا جـرف التيـار السـمكة، صــار يجرفــه بــين منعطفــات الســير. لــم تعــد قــواه تعينــه علــى مواجهة ديناميكية الأمواج، أصيبت أطرافه بالخدر والإنهاك.
كغصــن ينحــدر مــع التيــار، تغطســه موجــة وتطفــو بــه أخــرى. هجس بذاتـه يبتعـد عـن حافـة الجـرف، حـلّ بـه مـا حـلّ بالسـمكة. الظـلال افترشـت اليبـاب، والرعـب غشـي فكـره، أضـحى وحيـدًا فـي مواجهـة المـوت، لا يـرى مـن يسـتنجد بـه، بـات صـراخه لا يتجاوز حدوده، لا أحد يسمعه في تلك العتمة.
"وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آَمَنُـوا وَاتَّقَـوْا لَفَتَحْنَـا عَلَـيْهِمْ بَرَكَـاتٍ مِـنَ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِـنْ كَـذَّبُوا فَأَخَـذْنَاهُمْ بِمَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ" – صدق الله العظيم.
حــاول أن يعيــد توازنــه، أن يقــاوم مــدّ الرعــب، دون جــدوى. المــوت زحــف نحــوه، أصــيب بتشــنجات، استســلم لمصــيره، صــار يســتنجد بــالرحمن والشــيطان، يصــرخ بــأعلى صــوته ولا من يستجيب، بل يرتد إليه صداه بالخيبة.

امتلأت بطنه بالماء، تقطعت أنفاسه، بات يشهق ويغطس، لم يفك لغز السمكة، كما جردها من حياتها، جردته من حياته. العين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم. في نهاية المطاف، غطس غطسته الأخيرة، بعد أن انتُزعت منه إرادته، ولم يُعثر عليه إلا جثة هامدة على سواحل بغداد الجنوبية.
حاول أن يلعب مع الحظ لعبة القط والفأر، لكنه لم يدرك أسرارها جيدًا. فالنعم التي تُتجاهل تتبخر، ومن يستهين بالفرص، يستهين به الزمن.
من موروثات الوالدة العزيزة، طيّب الله ثراها، وجعل مثواها الجنة برحمته تعالى.

2- مملكة النساء

يحكى بأنه كان هناك شابا يافعا قوي البنية فقير الحال، يعمل مزارعا في حقل أحد الأشرار، ود أن يتزوج أبنت سيده بعد أن هام بها وهامت به، غير أنه اشترط عليه مهرا يفوق قدراته، تقديرا لحسن ومكانة أبنته بين بنات القرية.
ذلك ما دعاه أن يستعين بنصح الأخيار، فذعن لرأي شيخ بعد أن مل التوسل والرجاء. فقال له:...

- عليك أن تغير عملك وتسعى خارج حدود القرية، عسى أن يستيقظ حظك بين العباد، ويفلح فألك لتنال المراد.

ترك الشاب قريته في ليلة ظلماء، دون أن يخبر أحدا عن وجهته، دام به المسير أيام تتبع أيام، حتى وجد ذاته مرهقا عند تلة تحتوي على كهف صغير فقرر أن ينام تلك الليلة بذاك الكهف. شاكيا حاله لذاته نتيجة عسر الظرف والعناء والوحدة،
دخل الكهف مبهوتا، هجس به كهف يمتد جذوره لعمق التأريخ، قديم قدم الخليقة، دشنت معالمه صوره على الجدران، وجد فيه من آثار بقايا قُلل ومعول صغير مدفون وسط الكهف وعظام. يبدو عمره يتجاوز عمر الحضارات.
لجهده وجوعه ومسيره الطويل، أستسلم للرقاد، أمتد على ظهره في وسط الفج كالموتى، لم يأبى للحيوانات المفترسة من أن تفترسه، لحاجته الملحة للنوم وهوان جسده..
وهو غائر في سكرة النوم؛ حلم بحبيبته ترقد جانبه، تعتني به، تقبله، ثم همست بأذنه قائلة له:...

- يا حبيبي، تحت رأسك يوجد كنز ثمين، أن أفلحت في إخراجه سيجعلك من أغنى رجالات القرية..

على تلك الواقعة فزَّ من نومه وهو مبهور من حسن الفأل، غارق بفيض ذلك الامل الذي يبحث عنه، جلس في مكانه وعينيه تدوران في أرجاء الكهف، فلم يجد غير ذلك المعول البالي...
أعاد شريط الحلم على ذهنه بشيء من البهجة والسرور والتركيز، أخذ بيده المعول الصغير وصار يحفر في موضع رأسه كما أخبرته حبيبته.....
خلال الحفر كان قد لمح في الكوة التي حفرها حجرا صغيرا يمنعه من تكملة مشوار الحفر. قرر قلعه من مكانه. وهو يحاول برفشه الصغير إزاحة الأتربة من حول الحجر، وإذ به يكتشف بأنه راس تمثال بحجم طفل صغير.
فرح كثيرا وصار يعتني به، محاولا إخراجه من الكوة بيسر، وما أن رفع التمثال من موضعه؛ حتى خسفت به البقعة التي تحت قدميه، ليسقط على حين غفلة في هوة عميقة دون أن يعلم عمقها ومداها....
أفتقد وعيه، ولم يفيق إلا بعد أن وجد ذاته مرمي تحت شجرة تفاح قرب نبع ماء زلال. أغتسل منه، شرب حتى أرتوى، تناول تفاحة، ثم ود أن يستطلع المكان، نحا في سيره مسلكا حجري أنحرف به يسارا، ليجد ذاته تخور في مدينة جميلة كمدن ألف ليلة وليلة، لفسيفساء الأبنية ونظافة الطرق وكثافة الأشجار وانتشاء ضوع الورود البهيجة في السبل، ما أبهته وجدها كل ساكنيها من النساء ذوات الفتن وحور العين.
يا ترى أين أصبح؛ هل دخل الجنة دون أن يعلم؟؟؟؟
وما أن وجدنه يجوب الشوارع؛ حتى القين القبض عليه، قيدنه إلى قصر الملكة. وجد ذاته أسيرا مسجونا في غرفة من غرف قصر الملكة. الغرفة تحتوي على سرير من خشب الصندل وفرشة من الحرير، فيها نافذة تطل على بحيرة

الطيور، تحيط به النساء والخدم أحداهنَّ أجمل من الاخرى، لشدة النور الساطع في مفاتن وجوههن وقوامهن.
عندها نسيَّ وجه حبيبته التي تماهت في رشفة من حسن تلك الفتيات المحيطات به. صار يجهد ذاته محاولا تذكر شيء من ماضيه دون جدوى، جرد تماما من كل ما كان يربطه بقريته، وكأنه ولد من جديد.
هكذا نسي قريته وأهله وحبيبته، ليسقط في هوة السحر والجمال، لا يعرف عن المدينة سوى فيض فتن تتدفق في ناظريه أينما يتجه.
عرف من الخدم بأنه فيما سبق كانت هذه المدينة تقتل كل رجل تطأ قدمه ارضها.. الفكرة في ذلك؛ بان الرجل في تركيبة عقله جحف، يحب التسلط، كبرياءه يجعله يفرض سيطرته بالقوة على القرار والسلطة، يحيد المرأة، يجعلها تنكمش على ذاتها في الزوايا. لذا لم يدعن رجلا يعيش بينهن في المدينة...
كان من عادات هذه المدينة اختيار ملكتها على حسب نسبة الجمال المكنون في الفتاة. بتلك القاعدة يتم حسم الخلاف بين المتباريات. لابد أن تكن الملكة أجمل نساء المدينة، أكثرهنَّ فتنة، أرشقهن قواما لتتوج ملكة على المدينة.
كما أنه يتجدد اختيار الملكة كل أربعة سنوات مرة على ان لا يتجاوز عمرها أربعة وعشرين سنة، وكان قد ألقي القبض على الرجل في يوم تتويج الملكة الجديدة، فتاة في غاية الرقة والجمال، تحمل من الفتنة أجمل ما أبدع الله في خلقه، لدقة معانيها واتزان طولها الرشيق.
ما أن أدخلن هذا الشاب الى القصر الملكي؛ حتى أرفقت به الملكة، كونه ذا فأل خير قد حضر في يوم تتويجها، لذا ودت الاحتفاظ به، فأمرت بإعداد حجرة خاصة له في قصرها،

خاصة بعد أن وجدته شابا وسيما قويا لا يكبرها إلا ببضع سنوات، لذا أحبته وودت أن تقترن به.
كانت كل يوم تزداد به حبها وشغفا وفتنة، فقابلها بذات الشعور والطيبة؛ حتى تعلق بها تعلق الروح بالجسد، تناسى كل ما كان يشغله ويربطه بماضيه.
مرت الأيام بسلاسة وكأنَّ الزمن قد أوطف الشوق بين عينيهما، غرز العشق في دروبهما؛ حتى ثبتت القناعة في قلبيهما. إذا اقتنعت الملكة به زوجا لها، فأصبح ذلك الشاب المزارع ملكا على المدينة دون أن يدري.
قالت له الملكة بعد أن تزوجته:....

- كل شيء في هذا القصر هو تحت يديك. وكل من في المدينة يأتمر بأمرتك، ولك حق التصرف بشؤون البلد، ما عدا مكان واحد فقط يحرم عليك دخوله، أو تسأل عنه من باب الفضول...

(فأشارت الملكة بيدها إلى باب مغلق معزول في الجانب الجنوبي من القصر) قالت له:...
الا هذه الحجرة الوحيدة، غير مسموح لك بدخولها بتاتا.
مرت علية فترة وهو منتعش بوجوده في القصر، معززا، مكرما، يعيش عيشة لم يحلم بها، لا ينقصه شيء، التزم بتعاليم الملكة إلى أبعد حد، كان كالريشة بيدها ترسم به سعادتها.
ذات يوم بينما كانت الملكة تستطلع شؤون الرعية، هو كان وحيدا يتجول في القصر، تملكه الفضول وحب استطلاع ما تحويه تلك الحجرة من اسرار لا تود الملكة أن يعرفها. لحبه الشديد لها ود أن يعرف ما تخفيه عنه الملكة من أسرار، وما سر تلك الحجرة الغامضة؟ لماذا تمنعه من الدخول إليها؟؟؟؟..

حيث دائما ما يكون للفضول دور في تحفيز الذات على تجربة ما هو خفي وممنوع. كأنه هجس بذاته قليل شأن، ولن يشعر بكرامته حتى يكمل فضوله في معرفة السر.. لذا قرر أن يتجه نحو ذلك الباب المغلق تحت ستر الوحدة، في لفتة خالف بها قرار زوجته الملكة، راغبا معرفة ما فيها من غرائب وأسرار.
غافل الخدم متجها للغرفة المغلقة، وبهدوء اللص أدرك الباب وهو يغشيه الوجس... ما أن فتح الباب؛ حتى عصفت به ريح سهكة، أغشت أحداقه، كشفاطة سحبته لداخل الغرفة، ليجد مرميٌ في ذات الكهف الذي سقط من خلاله مغشي على روحه، وجد ذات المعول ومطواته ملقاة على الأرض بجانبه.
حاول جاهدا إعادة الكرة ليعود للمدينة، إلا أنه لم يفلح بمسعاه، أخذ يتفحص المعول عسى أن يجد فيه حلا للغز، وجد تحته عبارة مكتوبة عليه بخط الثلث " لا تحاول الكرة، الفرصة مرة " حينها فهم مغزى ما جرى له، شعر بالندم الشديد على عدم التزامه بتوصية الملكة.
قال له؛ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان. صدق الله العظيم....
هكذا عاد الشاب لقريته خالي الوفاض، فقير الحال، معدم ليبدأ كما كان من الصفر، يبحث عن مهر لبنت المزارع....
من مورث الوالدة طيب الله ثراها*

3- الملك والذهب

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، ملكٌ من الملوك الحِسان، صديقٌ للأنس والجان، رهيف القلب، يحكم بالعدل والإحسان جزيرةً نائية تُدعى الزبرقان. جزيرةٌ تتوسط البحر، تفيض سحرًا بفيض الشجر، لا يزيد سكانها عن بضعة آلاف، يعيشون على الصيد والزراعة، ويغزلون أيامهم بخيوط البساطة والرضا.

ذلك الملك العالِ الشأن، كان محبوبًا من شعبه، كما أحبهم هو، لورعه، وعطفه، وإنسانيته. وكانت له زوجةٌ غايةٌ في الجمال تُدعى "صدف"، شاء القدر أن يخطفها في لحظة ولادة ابنتهما البكر "لؤلؤة"، التي فاقت أمها حسنًا وجمالًا. اشتد حزنه على فراقها، لشغفه الكبير بها، وقرر ألا يتزوج امرأةً غيرها، لتبقى شاخصةً في ذاكرته كالماسة، حتى يدركه الأجل.

كلما داعب لؤلؤة، خفق طيف صدف في خياله كالشهقة، فتختلج صورها في شريط ذاكرته، وتنهال عليه لحظات سعده وأنسه معها. هكذا بقي حزينًا على زوجته أربع سنوات، يعتني بلؤلؤة كما تعتني الأم بطفلتها، فلم ينسَ دوره كأبٍ حنون قط. كبرت لؤلؤة وترعرعت أمام عينيه، فانبجست بالفتنة من رأسها لأخمص قدميها، وصارت شعلةً تبهج حياته برقتها، وحيويتها، وذكائها. أفضت عليه سعادةً أنسته أرقه وهمومه، وصارت ولعه في الدنيا، وحضن أمانه ومستقبله.
وذات مساء، بينما كان يتجول في أطراف المدينة يتفقد أحوال الرعية، رأى رجلًا كهلاً أنهكه الجوع والعياء، يحمل حزمةً

مـن الحطـب. لتواضـعه وشـدة ورعـه، نـزل عـن عربتـه، وأراد أن يتعـرف علـى حالـه. أخـذ بيـده، وسـار معـه حتـى أوصـله إلـى بيتــه المترامــي فــي أطــراف المدينــة. وعــرف منــه أنــه يجمــع الحطـب ليعيـل ابنتـه الوحيـدة "تفاحـة"، تلـك التـي يخـاف عليهـا مــن الطيــر أن يخــدش حياءهــا، لفتنتهــا، وحســنها، وكمــال تربيتها، وهي في ريعان عمرها، في العشرين.

مـا إن وصـل الملـك إلـى البيـت، حتـى فتحـت لـه البـاب تفاحـة، فأعجـب بفتنتهـا، ورشـاقتها، وانبسـاط ملامـح وجههـا. أوهجـت فـي ذهنـه فكـرةً لماحـة، لمعـت مزاجـه، دغـدغت قلبـه، وحركـت عواطفـه. تلـك الفكـرة اسـتحوذت علـى مشـاعره، طافـت بخيالـه، وارتقـت بصـفاتها وحيائهـا عبـق أنفاسـه. تعلّـق بهـا، وهجـس بهـا قدرًا يكمل به قيافته وسعادته وحياته.

هكـذا دخلـت تفاحـة مـزاج الملـك، فأحبهـا مـن النظـرة الأولـى، وسـيطرت علـى أفكـاره ومشـاعره. ودّهـا شـريكةً لحياتـه، وأمًـا للؤلـؤة، لعلهـا ترفـع عنـه وعنهـا كاهـل الوحـدة السـليطة. فـأمر مرافقـه بتسـجيل اسـم الرجـل وعنـوان بيتـه، واسـتدعائه هـو وابنتـه يـوم الخمـيس القـادم لحفـل غـداء فـي القصـر، بمناسـبة ذكرى تتويجه ملكًا على العرش.

وفــي ذات الوقــت، شــكا الملــك ذاتــه لربــه، لثقــل هــمّ الرعيــة، وضـعف إمكانـات المملكـة الماديـة، وتمنـى لـو يخفـف وطـأة الفقـر عن شعبه، فقال في سره:...

"يـا رب، لـو كنـت أملـك قنـاطير الـذهب والفضـة، لجعلـت كـل فقراء الجزيرة أغنياء".

سمع همسه صديقته الجنية الورعة، فحنّت عليه، وودّت أن تطيب خاطره، فقالت له:...

- يا جلالة الملك، سمعت دعاءك، وقد صعبت عليّ حالتك، لذا سأحقق لك أمنيتك كما تريد وتسعى.

قال الملك متعجبًا:.....

- كيف يا جنية؟ هل لك أن تعلميننى؟

قالت:...

- سأضع في يديك علامة قدرة التمكين، سأجعلك ساحرًا، بحيث ما أن تلمس الشيء بيدك الكريمة، حتى يتحول إلى ذهبٍ أو فضة كما تشاء، وذلك من صباح يوم الغد، الخميس.

شكر الملك الجنية التي حلت له معضلته، وفي صباح اليوم التالي، استيقظ بنشاطٍ غريب وحيويةٍ غير معتادة. ود غسل وجهه بالماء والصابون، وما إن أمسك الصابونة حتى تحولت إلى قطعة ذهب! بهت، وتعجب، ولم يصدق حاله. أخذته النشوة والفرح، فتناسى ذاته ومركزه، وصار يطير في أرجاء القصر، يلمس الجدران والتحف، فتحول القصر لتحفةٍ من ذهب وفضة.

انطلق خارج القصر إلى الحقول والمزارع، وحوّل حول شارع الموكب وأشجار المملكة إلى بستانٍ من فضة وذهب. ثم توجه إلى مزرعة الدواجن والأبقار، ولمس الحيوانات واحدةً تلو الأخرى، فتحولت إلى تماثيل بهيجة من ذهب وفضة. أضحى أغنى رجلٍ في العالم، وفرح فرحًا شديدًا في داخله. تحولت الجزيرة إلى جنينة صفراء، يختلجها نورٌ من ذلك المنظر البهيج، وبدت ككوبٍ جانح بين أمواج البحر العاتية.

غلبت النشوة على عقله، وغطّت على فكره، لهوسه بتفاحة التي أفرجت عن كربه، وأرسخت في داخله حيويةً جديدة. بظهورها، رفعت عنه غلّ الوحدة والوحشة التي كبلته بعد غروب شمس صدف عن دنياه. كما أن فيض بهجته وانغماسه في ريق الغنى أضفى عليه بسمةً ورفعة، إضافةً إلى وجود لؤلؤة كصدفةٍ تلمع حياته وتذكره بأمها.

أحضر مبعوثه الرجل الفقير وابنته تفاحة إلى القصر، قبل عودة الملك بساعة. وطلب من الحاشية إعداد وجبةٍ دسمة على شرف الضيف وابنته. وما إن حل الملك، حتى جالس ضيفه وابنته على سفرةٍ مذهبة في وسط جنينةٍ من ذهب وفضة، وأوضح إعجابه بتفاحة، فقال:....

- سيدي الكريم، دعوتك إلى قصري لأني أعجبت بابنتك تفاحة، وأود أن أخطبها منك لتكون زوجتي وشريكة حياتي، وأمًا لابنتي لؤلؤة التي افتقدت أمها منذ أربع سنوات. فما رأيك بأن يكون الملك نسيبك؟

قال الرجل الفقير، والفرحة لا تسع قلبه:...

- الرأي رأيك يا سيدي، نحن من رعاياك، ونتشرف بك كأبٍ وصهرٍ لنا.

تهلل وجهه بالفرح، كما تهلل وجه تفاحة بالحياء والخجل، فغطّت بوشاحها أفق وجهها النير. ترقرقت عيناها بدموع الفرح، وهجست بذاتها كطيرٍ حطّ على جنينة القصر.

بعد ذلك، قُدّمت وجبةٌ فقيرة: دجاجة صغيرة، وطبق رز، وشوربة عدس. نظر الملك إلى السفرة، واستدعى الطباخ ليوبّخه:....

- لماذا هذا البخل أيها الأشعث؟ ألم أنبّهك على وجود ضيفٍ عزيز؟

قال الطباخ مرتبكا:....
- بلى جلالة الملك، لكني لم أجد شيئًا أطبخه. الدواجن والأبقار تحولت إلى تماثيل ذهب، مثلها الفواكه والخضروات. لم أجد سوى هذه الدجاجة الفارة من المزرعة.

سكت الملك، وأحسّ بغلطته وطياشه. وما إن أمسك الملعقة، حتى تحولت إلى قطعة ذهبية. خاف أن يلمس الفاكهة، فصار الحرس يطعمه بالشوكة والسكين.
بعد الغداء، أنسته فرحته ذاته، فتقدم ليقبّل يد تفاحة ويأخذها في جولة تفقدية يعرفها على القصر ومحتوياته.. ما أن لمس يديها حتى تحولت لتمثال باهر من الذهب وثياب لماعة من الفضة كثياب العرس.
حينها حزن عليها حزنا شديدا، باتت الدموع تنهمر من مقلتيه، افتقد سروره بالذهب الذي صار يفيض بين يديه، حينها جلس على كرسيه مغشيا، يفكر بأمر الجنية عسى أن تنجده من حيرته.. في تلك اللحظة ودون أن ينتبه قفزت لؤلؤة في حضنه لتتحول هي الأخرى لتمثال صغير من الذهب بين يديه...
أشتد بكاءه ونحيبه، صار يلعن حظه العاثر، يبحث عن الجنية في أعماق فكره، وفي الهواء الذي يتنفس، والريح العابرة على الجدران، عسى أن تخلصه من تلك الشائكة التي جلبت عليه الأحزان أكثر من الأفراح، تلك الجائحة كان قد غص بها، صار يكرهها، حملته على الألم والمشقة.

جلس الملك مذهولًا، والدموع تنهمر من عينيه، يحتضن تمثال ابنته الصغيرة، وقد تحجرت بين يديه، لا دفء فيها ولا حياة. صار يصرخ في أرجاء القصر، يبحث عن الجنية، يندب حظه، ويستغيث بها في الهواء، وفي الريح، وفي كل زاوية من زوايا مملكته التي تحولت إلى ذهبٍ لا يُؤكل، ولا يُحب، ولا يُعانق.

وفي لحظةٍ من الحزن العميق، ظهرت له الجنية، بهيئة نورانية، ترفرف حوله كنسمةٍ من رحمة، وقالت له بصوتٍ حنون:...

- أيها الملك، لقد رأيت بعيني ما فعلت، حولت مملكتك إلى ذهب، لكنك خسرت كل ما تحب. لم يجد شعبك ما يأكل، ولم تجد من يعتني بك، ولا من يزيل عنك هموم الدنيا. الذهب لا يعوّض مباهج الحياة، ولا يملأ فراغ القلب. كان الله قد أعطاك الكثير، لكنك لم تقتنع. كن قنوعًا بما قسمه الله لك، فالقناعة كنزٌ لا يفنى، وهي التي تجلب السعادة الحقيقية.

حينها، جثا الملك على ركبتيه، وتوسل إليها، والدموع تغسل وجهه:

- أرجوكِ، أعيدي إليّ ابنتي لؤلؤة، وحبيبتي تفاحة. لقد أدركت أن الذهب لا يساوي شيئًا أمام دفء الحب، وحنان العائلة، ورضا الشعب. لقد أخطأت، واستعجلت، وهُزمت أمام هوسي بالثراء. أرجوكِ، خلّصيني من هذه اللعنة.

نظرت إليه الجنية بعين الرحمة، وقالت:...

- سأعيد كل شيء إلى ما كان عليه، وسأرفع عنك صفة التمكين. ستعود مملكتك كما كانت، وإن كنت تبحث عن الغنى، فستجده بالعمل الدؤوب، وبحب شعبك، وبقلبك الرحيم.

وما إن أنهت كلامها، حتى عمّ نورٌ ساطعٌ أرجاء القصر، وعادت تفاحة إلى طبيعتها، حيّةً ناعمةً كما كانت، وعادت لؤلؤة إلى حضن أبيها، تضحك وتلعب، وكأن شيئًا لم يكن. وعادت المزرعة، والدواجن، والأبقار، والحقول، والفاكهة، وكل شيء إلى حاله الطبيعي، وعاد القصر إلى رونقه البسيط، المليء بالحب والدفء.

تزوج الملك من تفاحة، وعاشت معه حياةً سعيدة، وصارت أمًا حنونةً للؤلؤة، ورفيقةً للملك في حكمه، وسندًا له في أيامه. أما الجزيرة، فقد ازدهرت بالعدل، والعمل، والمحبة، وصار أهلها يروون حكاية الملك الذي لمس الذهب، فعرف أن السعادة لا تُشترى، بل تُصنع بالرضا والقناعة.

 من موروثات الوالدة العزيزة، طيب الله ثراها، وجعل مثواها الجنة بإذنه تعالى.

4- أبن آوى*

حكاية ابن آوى وتوبته المزعومة
مرت على ابن آوى أيامٌ عصيبة، جف فيها رزقه، وذبل جسده، ووهن عوده. لم يعد قادرًا على مطاردة الطيور والدواجن والجرابيع والأرانب والثعالب التي طالما عشق لحومها. شيخوخة مبكرة أرهقته، وعجزٌ أوقفه عن مجاراة أقرانه في فضاء الصيد. صبره تآكل، وأمانيه تحولت إلى فقاعات تتفجر أمام عينيه.

صار يشتاق لوجبة دسمة تشفي غليله، تطفئ شرر عينيه المفجوعة، وتلبي رغبات معدته الشرهة. لكن الطبيعة، كأنها تخلّت عنه، فلم تسنده بفريسة واحدة. اضطر إلى التهام الجرذان والحشرات، بل حتى الحشائش وأوراق الشجر، فقط ليبقي على رمق الحياة ويعوض فشله المتكرر.

الفكرة الماكرة
في لحظة يأس، خطرت له فكرة أشبه بفرقعة رمضانية، أيقظته من غفلته: هو أن يتظاهر بالتوبة والورع أمام فرائسه. استلهمها من مشهد صياد يرمي شباكه في نهر دجلة من على "الكلك" — ذلك القارب المصنوع من سيقان الأشجار والمربوط بالحبال، والمسنود بطوافات من الفلين أو إطارات العجلات.
بنى ابن آوى كلكه، وارتدى جلبابًا أبيض، وعصب رأسه بعصابة بيضاء، وعلّق مسبحة طويلة في يده، وأرخى سنارة في الأخرى. بدا لمن يراه أنه عازم على رحلة حج مباركة.

الدجاجة المسكينة
كانت الدجاجة أول من خدع بمنظره الجديد. لطالما أرعبها اسمه، فكيف لا ترتبك حين تراه متحولًا إلى شيخ ورع؟ دفعها فضولها لتسأله:....
"هاي، أبو الويو، ماذا جرى لك؟ هل جننت؟ إلى أين أنت ذاهب؟"
ردّ عليها ببرود وحنكة:
"والله يا صديقتي، أنا ذاهب إلى الحج، لأعلن توبتي من أكل الدواجن والأرانب."

سألته بشك:...
"هل أنت جاد؟ أم أنك تخدعني؟"
فأجابها:
"أقسم بالله أني تبت، وهذه مسألة بيني وبين ربي."
اطمأنت له، وطلبت مرافقته، فوافق بكل ترحاب. نطّت إلى الكلك، وأجلسها بجانبه، ثم أخرج غترة بيضاء لفّ بها رأسها.
سألته:
"أرى بيدك سنارة! هل تحب السمك؟"
فأجاب:
"الطريق طويل، وقد نحتاج إلى الطعام، جلبت معنا خبزًا يكفينا."
كشف عن أقراص الرغيف، فزاد ذلك من طمأنينتها، وقالت له:
"صدقتك، ربنا يجازيك كل الخير."

الديك
مع انحدارهم، لمحهم الديك الذي كان يبحث عن قرينته قرب جرف النهر، تلك التي اختفت فجأة عن ناظريه. توقف

مذهولًا، وقد رأى صاحبته الدجاجة جالسة بجانب ابن آوى، ترتدي فوطة بيضاء، والطمأنينة تكسو ملامحها. اخترقته المفاجأة كالسهم، وغرق في صمت طويل. تُرى، ما الذي دفع بها للجلوس بجانب عدوها ومفترسها؟ كيف أقنعها؟ وما الذي تغيّر؟

لم يستطع أن يصمد أمام عاصفة مشاعره، فلوّح لها بجناحه مناديًا: –

- هاي... يا حبيبتي، هل أنت بخير؟ ماذا أرى؟ أكاد لا أصدق عينيّ! ما سر هذا الجمع؟ وما هذه الأوشحة البيضاء على رؤوسكم؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟

سيل من الأسئلة انهمر على وقع اندهاشه، فأجابه ابن آوى برزانة ويقين:-

- إني ذاهب للحج، وقد تبت عن أكل الدجاج والطيور والأرانب، وسأعلن توبتي أمام الملأ في مكة.

نادته الدجاجة بنبرة مؤمنة: –

- ما رأيك أن ترافقنا يا رفيقي؟ تعال لنعتمر سويةً، فهذه الدنيا فانية، اعمل لآخرتك قبل أن يحين أجلك، فما لنا فيها من مآرب سوى حسن الختام.

تاه الديك في فكره المضطرب، محتارًا بين عقله المتوجس وقلبه المخدوع بما تراه عيناه المرتجفتان. أغشى المنظر بصيرته، ورقّ فؤاده لحبيبته، بينما أعياه التفكير. الحقيقة شاخصة أمامه، والفرصة مواتية لزيارة الكعبة، لكن الزمن لا ينتظر مع مجرى النهر. القرار صعب، والقسمة جاهزة تنتظر منه الاختيار.

وبعد تمحيص وتردد، لان قلبه، ورضخ لإرادة حبيبته، مستغلًا الفرصة السانحة بين يديه. ربما حقًا تاب ابن آوى، فالله يبدّل النفوس في ليلة وضحاها.

قال الديك: –
- هل تسمح لي أن أرافقكم؟
- على الرحب والسعة، المكان واسع كما ترى، تفضل، أسرع، فالنهر جارٍ، لا نستطيع التوقف أو الانتظار.

رمى بنفسه مرفرفًا بجناحيه حتى سقط وسط الكلك، وجلس بالقرب من حبيبته التي ظللته. أخرج ابن آوى من جعبته غترة بيضاء جديدة، لفّ بها رأس الديك قائلاً: –
- سعيًا مشكورًا، وحجًا مبرورًا مقدمًا.
كان ابن آوى قد رسا تمامًا على غايته، كما ترسو السفينة في مينائها. استقر بثبات على ما يدور في فكره، متظاهرًا بالكياسة والهدوء، دون أن يفضح سره أو يكشف نيته.

البطة وعلجومها:
وصل الكلك إلى منتجع الطيور، فاستوقفت البطة مشهدًا لم تألفه من قبل. جمعٌ غريب يقترب منها، فيه من التناقض ما يثير الحيرة. خاطبت نفسها بدهشة:
"يا ترى... ماذا جرى لعالم الحيوان؟ أيمكن أن تنشأ صداقة بين المفترس والفريسة؟ ألفة بين الجاني والمجني عليه؟ لا أصدق ما أراه!"
غرابة المنظر أربكتها، فالتفتت إلى علجومها تسأله:
- هل لك تفسير يا علجومي العزيز؟
أجابها وهو يحدق في الجمع:

- أنا مثلك، في حيرة واندهاش. لم أشهد في حياتي مشهدًا كهذا.

دفعها الفضول إلى الاقتراب من المركب، حيث كان الديك والدجاجة وابن آوى يجلسون في انسجام مريب. خاطبتهم:

- يا هذا، ما قصتكم؟ وما هذه الأوشحة البيضاء على رؤوسكم؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟

أجابها ابن آوى بوقار مصطنع:

- نحن ذاهبون إلى الحج. لقد تبت عن أكل الدجاج والبط والأرانب، وسأعلن توبتي هناك.

قالت البطة وقد خفّ قلبها:

- جميل، الله يهدي من يشاء. وكم ستستغرق رحلتكم؟

ردّ وهو يسبّح بمسبحة براقة:

- شهرٌ تقريبًا، إن شاء الله.

أضفت المسبحة على هيئته وقارًا، حتى بدا كالمعتكفين في الصوامع. قالت الدجاجة:

- ما رأيكم أن ترافقونا؟ لعلها تكون رحلة فلاح وإحسان وجنة الفردوس.

سألت البطة بتردد:

- وهل تسمحون لنا بالرفقة؟

أجاب ابن آوى:

- بالطبع، في الجماعة ثبات وقناعة.

صعدت البطة وعلجومها إلى المركب، وربط ابن آوى رأسيهما بغترتين بيضاويتين، كما فعل مع الآخرين. بدا المنظر أكثر غرابة، فقد أحاط نفسه بأطيب مشتهياته، في هيئة من الورع والتوبة.

كان يعلم أن وجبتي الغداء والعشاء قد أمنت، فتابع رحلته بهدوء وخشوع، متظاهرًا بالإيمان، بينما يخطط لوليمة دسمة.

ومع انكسار الشمس نحو الأفق، ظهر أرنب يتدحرج بين الحشائش، هاربًا من صقر كاد أن يفتك به. مرعوبًا، وجد في المركب الغريب ملاذًا، فنادى بصوت متعب:

- هاي... إلى أين أنتم ذاهبون؟

أجابه ابن آوى:

- إلى الحج، وقد تبت عن أكل الطيور والأرانب.

قالت الدجاجة المخدوعة:

- ما رأيك أن ترافقنا؟ تكسب أجر الآخرة.

رد الأرنب، وقد وجد فيهم طوق نجاة:

- أتسمحون لي بالرفقة؟

أجاب ابن آوى:

- على الرحب والسعة، اقفز حين نقترب من الجرف.

مد له خشبة، فوثب الأرنب بخفة، وصعد إلى المركب، غير مدرك أنه ارتقى سلم المكيدة برغبة، وجلس خلف ابن آوى، الذي ربط رأسه بغترة بيضاء، كما فعل مع الجميع.

الثعلب:-

فيما كانت الشمس تتهيأ للغروب، انعكست صورة القافلة في عين الثعلب الماكر، الذي لم يستسغ اجتماع تلك الحيوانات خلف ابن آوى، فنادى عليهم باستخفاف:

– هاي! ما خطبكم أيها الجهلة؟ إلى أين يأخذكم مفترسكم ابن آوى؟

أجابه ابن آوى متصنعًا الورع:

– أنا ذاهب للحج، أعلن توبتي أمام الملأ، لقد هداني الله للحسنى، ولزمت الصلاة منذ ذلك الحين...

فبرر مسعاه، بينما قالت الدجاجة:

– نحن ماضون في سعينا، فلا تضيع فرصتك السانحة، هلم معنا.

وقال الديك:
– لا تسيء الظن، فبعض الظن إثم.
وقالت البطة:
– الخير فيما اختاره الله.
وأضاف الأرنب:
– نحن جماعة، وعمل الجماعة أفضل من عمل الفرد.
شعر الثعلب بوخز الوحدة، فقرر الانضمام إليهم، متخفيًا خلف غترة بيضاء توحي بالإيمان والنية الصادقة، بينما كان ابن آوى يبارك انضمامه، والشلة المخدوعة ترحب به.
مع حلول الغسق، وابتلاع السماء لوحل الدماسة، بدأ الظلام يجلد القلوب بالجوع والخوف والتعب. قرقرت البطون، وتساءلت العيون الشبقة: متى يجود ابن آوى بكرمه؟ وقد نجحت خطته تمامًا، ولم يبقَ إلا إتمامها بسرية وكياسة.

اقترح عليهم أن يقضوا ليلتهم في جحره خلف تلة اعترضت طريقهم، على أن يستأنفوا الرحلة مع الفجر. وافقت المجموعة المنهكة، ودخلوا الجحر، بينما جلس ابن آوى عند المدخل ليمنع الهرب.
في أول الليل، بطبطت البطة بصوتها المزعج "واق-واق"، تبحث عن ما يسد رمقها، فزجرها ابن آوى:
– أصمتي يا وجه الشؤم! سيسمعنا الإنسان ويفتك بنا!
ثم انقض عليها وعلى علجومها، وجعلهما لقمة سائغة، تاركًا الريش يفترش الأرض كبساط يقئه البرد.
وقبل منتصف الليل، قأقأت الدجاجة برائحة الدم، فزجرها، ثم انقض عليها، واستساغها كوجبة دسمة أخرى، زاد بها نعومة البساط تحت قدميه.
المفترس لا يُؤتمن، وإن تظاهر بالرقة... لا تأمن الشوكة وإن كانت في غصن وردة.

تعلقت الشلة بمصيرها المشؤوم، وكل منهم يتسمر في عين الآخر، ينتظر لحظة تسفيره إلى جوف ابن آوى. دب الرعب في أوصالهم، وتشبعت أساريرهم بالخوف، حتى صاروا كأوراق خريفية.

مع أول الشروق، صاح الديك، ناسياً نفسه، فأيقظه ورفاقه من النوم. فزجره ابن آوى:
– ما بك جالس من الفجر تسلب راحتنا؟ أتريد أن يعرف الإنسان مكاننا؟
ثم انقض عليه، وهرسه بين أسنانه، تاركًا ريشه يتناثر في المكان.
بقي الأرنب والثعلب في صمت قاتل، لا يستطيعان الهرب، وسيف الخوف مسلط على المدخل. أصيب الأرنب بالهلع، فبدأ ضغيب بصوت مرتعد، وأفرج عن غازات نتنة أزكمت خياشيم ابن آوى، فغضب وانقض عليه، وجعله وجبة غداء دسمة.

وقبل أن يفرغ من الأرنب، تمتم الثعلب:
– أسمع صوت بشر قرب الجحر...
ارتبك ابن آوى، وخرج يستطلع الأمر، فاستغل الثعلب الفرصة وهرب، منقذًا نفسه بفطنته، قائلاً:
– ربي، نجيتني من ابن آوى، فلك عندي نذر قربة دبس، على ألا تريني وجهه ثانية.

وفي طريقه، رأى قافلة، فتتبعها، وثقب إحدى قربها بأسنانه، فخر منها دبس مراق، وبه وفى نذره.
الخدعة كانت درسًا وعبرة: لا تثق بعدو مهما لان واستتر.

ويصدق المثل الشعبي: "من يعيش بالحيلة يموت بالفقر" ينطبق على ابن آوى وكثير من أمثاله ممن يتخذون الكذب والخداع منهجًا.

"هذه القصة من مورثات الوالد العزيز رحمه الله وأسكنه فسيح جناته."

5- الديك والقاضي *

خلال سرحه في البقيع، وجد الديك بذرة شعير، التقطها، أحتفظ بها، فكر أن يستغل عقله الراجح في الاستفادة منها بممارسة الدهاء والحيل ضمن مضمار السذج من البشر، لتدر عليه فائدة وسعادة تغنيه عن مشقة العمل.... فصار يشهر بها بين الملأ.

دخل في أحدى المقاهي التي يجتمع بها لفيف من الحمقى والسذج العاطلين عن العمل، الذين ليس لديهم ما يشغل بالهم سوى التبجح والملاسنة بهموم وقضايا الناس.

نادى بهم الديك.....

- من يريد بذرة شعير، من يريد بذرة شعير...

أحد السذج (رقم1) ود الاستفادة منها، فطلبها منه، فأعطاه البذرة ثم ذهب لداره.

وفي اليوم التالي جاءه طارقا باب بيته، طالبا بذرة الشعير منه، قائلا له:.....

- يوم أمس أمنتك على بذرة شعير، وأني اليوم أود أن أستردها، فلو زراعتها في الحقل، ستصبح سنبلة تحمل عشرات البذور..
- لكني فقدتها خلال عودتي للبيت!----
- إذا سأشكيك إلى القاضي!

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه قائلا:...

- يا قاضي قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي بذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين.

قال القاضي للمغفل:...

- أعطيه قندة عجين مقابل الحبة التي أمنك عليها، وإلا ستسجن.

رضخ لأمر القاضي فأعطاه قندة عجين.

*****

كرر الديك فعلته في مكان آخر --

نادى بين جمع غفير من الجالسين على الرصيف:...

- من يريد قندة عجين !من يريد قندة عجين....

الساذج (2) : أنا أريد قندة عجين.

- أعطاه قندة العجين، رجع بها مسرورا إلى البيت.

في اليوم التالي جاءه الديك طارقا باب بيته، مطالبا بقندة العجين قائلا له:..

- يوم أمس أمنتك على قندة العجين، أرجو ان تعيدها إلي.
- لكنك وهبتها إليَّ وأنا أكلتها.
- بل أني استأمنتك عليها، فلو خبزتها وبعتها لشريت بثمنها حاجة تنفعني. فأن لم تعيدها إليَّ سأشكيك إلى القاضي.

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه:..

- يا قاضي قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي في ذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين – قندة عجين -- صفطة رغيف. أي (صف رغيف)

قال القاضي للمغفل(2): ....

- أعطيه صف رغيف وإلا تدخل السجن.

رضخ لأمره، أعطاه صف رغيف....

*****

كرر الديك فعلته في موقع جديد لم يطرقه من قبل، وجد أنها طريقة مربحة، لذا صار يستلذ بمردودها.

صار يعلن بين الملأ:...

- من يريد صفطة رغيف ؟ من يريد صفطة رغيف ؟

الساذج(3): أنا أريدها.

أعطاه صف رغيف وكل ذهب لبيته.

في اليوم التالي طرق الديك باب بيته مطالبا إياه بصف الرغيف، قائلا له:...

- يوم أمس أمنتك على صفطة رغيف، اليوم أني بحاجة إليها، أعد لي صفطة الرغيف التي استأمنتك عليها.
- لكنك وهبتها إليَّ، وأني أكلتها.
- لم أهبها لك، بل استأمنتك عليها، لو تصدقتُ بها أو بعتها في حي الأغنياء لشريت بقيمتها خروفا. إن لم تعدها ليَّ أشكيك إلى القاضي .

ذهب الديك للقاضي يشكيه:...

- يا قاضي قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي في ذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين-- قندة عجين صفطة رغيف – صفطة رغيف جلب الخرفان.

قال القاضي:....

- أعطيه خروفا لأنك خنت الامانة، وإلا تدخل السجن.

أخذ الديك منه خروفا.

*****

كرر الديك فعلته في مكان جديد:...

- من يريد الخروف ؟ من يريد الخروف؟
- الساذج 4: .. أنا أريده.

اعطاه الخروف، ذبحه، باع الجلد والصوف والكرعان، باع بعض لحمه وترك جزءا منه للبيت.

في اليوم التالي جاءه الديك مطالبا بالخروف!!قائلا:...

- يوم أمس أمنتك على الخروف، أرجو أن تعيده إليَّ.

- لكنك وهبت الخروف لي، فذبحته وأكلت لحمه!
- لم أهبك الخروف؛ بل استأمنتك عليه، هو كل ما أملك، فلو ذبحته وبعت لحمه وجلده وصوفه بثمنه استطيع أن أتزوج!، أن لم تعيده إليَّ سأشكيك للقاضي.

ذهب الديك إلى القاضي يشكيه قائلا:..

- يا قاضي قاضي قاضي – ربك عليك راضي – أنا دويج الحسين – رابي في ذاك البطين – لقيت حبة شعير – حبة شعير قندة عجين – قندة عجين صفطة رغيف – صفطة رغيف جلب الخرفان – جلب الخرفان جذب النسوان.

قال القاضي:...

- أعطيه بدل الحروف امرأة! وإلا ستسجن!!

أعطاه عروسة جميلة.

أخذ الديك عروسته التي جاهد من أجلها بالمكر والخداع، حتى وصل غايته، مستغلا رجاحة عقله بين السذج– معتمدا على فكرة (الغاية تبرر الوسيلة).

غايته قداس حياته، أنها جوهرة، تستحق المجازفة والحيل، فمن لا شيء تمكن من ان يرفد حياته بسعادة فيها كل شيء، مستغلا بساطة وسذاجة بعض البشر.

الحكمة؛ يستطيع الفرد أن يصل لمبتغاه بتشغيل عقله، عليه أن يعمل في وسط مناسب، دون التجني واستغلال الآخرين كالديك.

نعيب زماننا والعيب فينا - ترانا نلام على ما فينا
من يقنع الديك بحماقته - ومن يمنع ثعلبا يقاضينا

---

* من الموروث الشعبي – من حكايات أبي رحمة الله عليه

6- لغز السعادة

يُحكى أن تاجرًا ثريًا جاور حطّابًا فقيرًا في حيٍّ متواضع، وكان بيت التاجر شامخًا يطلّ على بيت جاره البسيط، حتى بات يلمح تفاصيل حياته اليومية من نافذته العالية.
كان التاجر غارقًا في تجارته، يتعامل في كل شيء: غذاء، أدوات، أجهزة، حتى بات الزمن عنده سلعة تُقاس بالدقائق. لا وقت لديه للراحة، ولا فسحة لعائلته، فزوجته وأطفاله كانوا يعيشون على هامش أيامه، يمرّ بهم مرورًا عابرًا، كأنهم زبائن لا أكثر.
زوجته، التي كانت يومًا مرآة أنوثة وبهجة، بدأت تذبل. الوحدة أكلت من روحها، والروتين كسر ألقها، حتى صارت تشعر بأنها فقدت جاذبيتها، وأهملت أناقتها، وتحوّلت إلى ظلّ امرأة كانت. لم يعد في البيت دفء، ولا في العلاقة حنان، فالمادة بطغيانها أرهقت العاطفة، وأطفأت شعلة الألفة.
أما الحطّاب، فكان يعمل يومين في الأسبوع: يوم للحطب، ويوم للبيع. يعيش بالكفاف، لكنه يعيش. كان يجد وقتًا لعائلته، يمازحهم، يتنزه معهم، يضحك من قلبه، ويشعر أن فأسه رفيق لا أداة. أحب عمله حتى صار بينه وبين الفأس تخاطر روحي، يستمد منه طاقة، ويجد فيه سكينة.
العمل اليدوي، رغم مشقته، كان مصدرًا لحيوية الحطّاب، يمنحه جسدًا قويًا ونفسًا مطمئنة. يعود إلى بيته بروح مرحة، يملأ البيت ضحكًا ودفئًا، فتغدو زوجته سعيدة، وأطفاله في انسجام، والبيت في حالة من البهجة الدائمة.
راقبت زوجة التاجر بيت الحطّاب، فرأت فيه ما افتقدته: بسمة دائمة، هيصة بريئة، لا شجار، لا توتر. شعرت

بالغيرة، بالحسد، بالخذلان. كيف لبيت فقير أن يكون أغنى من بيتها بالحب؟ كيف لفأس أن يهزم ثروة وتجارة؟
أما التاجر، فقد بدأ يلاحظ تغيّر زوجته، عصبيتها، افتعالها للمشاكل، انعكاس ذلك على أولاده، وعلى عمله. أدرك أن هناك خللًا، لكنه لم يعرف أن الخلل فيه، في نمط حياته، في أولوياته.
في المقابل، كان الحطّاب لا يهتم للغد، ولا للمال، بل للحظة. يعيشها بكل تفاصيلها، يسعد بها من يحب، ويكتفي بما يجود به رزقه. كان زاهدًا، قنوعًا، مستقيمًا، فغدت حياته متناغمة مع الزمن، لا تصارعه بل ترقص معه.
راقبت زوجة التاجر بيت الحطّاب لأشهر، فلم ترَ فيه سوى سعادة شفيفة، لا شجار ولا زعل ولا قهر، حياة هادئة، متجذرة في الرضا. أدركت أن السعادة لا تُشترى، بل تُصنع من الحب، من البساطة، من الوقت الذي يُقضى مع من نحب.
ومع كل لحظة مراقبة، كانت الغصة تكبر في قلبها. فعلى الرغم من ثراء زوجها، لم تجد في بيتها طعمًا للهناء. كل شيء متوفر: المال، الراحة، حتى مظاهر الحب... لكنها لم تجد القناعة، ولم تلمس دفء العلاقة. تساءلت: كيف لبيت فقير أن يفيض بالسعادة، وبيتنا الغني يضج بالفتور؟
تسلل الحسد إلى قلبها، فبدأت تحتقر فتور العلاقة، وتشتكي غياب الحميمية. كادت أن تنزلق إلى هاوية اليأس والانحراف، لولا مخافة الله التي كبحت جماحها. فقررت أن تواجه زوجها، أن تصارحه بكل ما يعتمل في صدرها، قبل أن يجرفها سيل الندم.
قالت له:....

- يا زوجي العزيز، ألا ترى كيف تتفاقم العقد بيننا؟ ألا تشعر بأنك غائب عنّا؟ علاقتنا تفتقر للحميمية، وأنا لم أعد أراك إلا كقطعة أثاث في البيت. حتى الأثاث

أعيش معه أكثر مما أعيش معك. المال الذي تكدسه جلب لنا العلل، لا السعادة. أنظر إلى بيت جارنا، رغم فقره، إلا أن السعادة تملأ أركانه. دعنا نحل مشاكلنا، دعنا نحدد ما ينقصنا.

رد الزوج، وقد بدأ يستشعر الألم في كلماتها:...

- وماذا ينقصك يا حبيبتي؟
- ينقصني وجودك، دفؤك، اهتمامك. ما نفع المال إن كنا لا نشعر بطعم الحياة؟ حتى اللقمة باتت ثقيلة، كأن الحسد تسلل إلى طعامنا وملبسنا. الوحدة تحاصرنا، أولادك بحاجة إليك، وأنا أحتاجك كزوج. جارنا فقير، لكنه سعيد... دعنا نراقب حياتهم، لنتعلم منهم، لنعيد بناء علاقتنا.

كان الزوج يتمتع بذكاء وفطنة، فهز رأسه معتذرًا، ووعدها أن يتفرغ لها ولأولاده، أن يخصص وقتًا للمتعة والفسح، أن يعيد ترتيب أولوياته.

وفي صباح اليوم التالي، أرسل أحد عماله إلى جاره الفقير، يدعوه للحديث في أمر يخصه. استقبله بحرارة، وقال له:

- أنت جاري، ويؤسفني أن أراك في هذا الوضع. أود مساعدتك، وأرى أنك تملك وقتًا للعمل معي. يمكنك أن تبقى حطّابًا في أوقات فراغك، وتكسب مالًا إضافيًا.

رد الحطّاب بسعادة:...

- حقًا ما تقول؟ أنا ممتن لعرضك، الحياة أصبحت معقدة مع كبر الأولاد، وسأكون حاضرًا متى شئت.

فقال التاجر:

- ما رأيك أن تبدأ معي بتجارة صغيرة؟ اشتر البيض من القرى، واجمعه في دكاني. أنا أبيع جزءًا، وأنت تبيع الجزء الآخر على البيوت بأسعار أقل. نقتسم

الأربـاح، وتكسـب رزقًـا طيبًـا، تطعـم أسـرتك، وتلبسـهم أجمل الثياب، وتعيش حياة كريمة.

وجـد الحطّـاب فـي عـرض جـاره فرصـة ذهبيـة لتغييـر حياتـه، فرصـة للارتقـاء، للعـيش بكرامـة، ولـرد الجميـل لمـن رأى فيـه الإنسان قبل الفقر.

وبـذلك انطلـق الفقيـر يعمـل ويجـد ويجتهـد. يخـرج مـع خيـوط الفجـر، ولا يعـود إلا مـع غـروب الشـمس، يـدور فـي القـرى والأريـاف خلـف غايتـه، يطـوف الأزقـة والبيوتـات يجمـع منهـا البـيض، ثـم يبيعـه علـى بيـوت المدينـة. ومـع كثـرة مـا فـاض بـين يديـه مـن رزق، بـات لا يسـتكين، منشـغلًا بنغمـة عـدّ الأمـوال، غارقًا في حساب المكاسب والخسائر.

ومـع مـرور الأيـام، لـم يعـد يجـد وقتًـا يجـالس فيـه زوجتـه وأولاده. تـرك النزهـات، ونسـي اللعـب والمـرح، وصـار لا يعـود إلـى بيتـه إلا متعبًـا، منهكًـا، لا يملـك مزاجًـا للملاطفـة أو المغازلـة، ولا وقتًـا كافيًـا للنـوم أو الراحـة. باتـت المعاشـرة الزوجيـة تقـل وتنـدر، وانشـغل فـي أوقـات فراغـه بتصـنيف البـيض وتحديـد أسـعاره، دون أن يلتفـت إلـى مـا ينقصـه مـن دفـء العائلـة وحنـان اللقاء.

وبعـد شـهر مـن العمـل المضـني، سـمعت زوجـة التـاجر أول مشـاجرة حقيقيـة بـين الفقيـر وزوجتـه. حينهـا ارتسـمت علـى وجههـا ابتسـامة عجـب، لا شـماتة، بـل اسـتغرابًا. اقتـرب زوجهـا منها، وهمس في أذنها:

- هـل عرفـتِ سـر مشـاجرتهم؟ حـين يتبـع المـؤمن خطـوات الشـيطان، تهـرب منـه الملائكـة. أنظـري إلـى المسـكين، غـرق فـي عـدّ البـيض ومـا جنـاه، فنسـى زوجتـه وأولاده وسـعادته. أنظـري إلـى وجـه زوجتـه، يكـاد الحـزن يتقطـر مـن جبينهـا، والكآبـة تنـدلق مـن ملامحهـا. اختنقـت بـدخان المـال الـذي صـار بـين يـدي زوجهـا. كلاهمـا بـات يعـيش

فـي وادٍ مختلـف؛ هـو يلهـث خلـف الغنـى، وهـي تفتقـد الحنان.

فردت الزوجة:....

- والله صـدقت، المـال تلاعـب بالأسـرة، لا بـد أن فـي الأمر خللًا.

قال التاجر:....

- الخلل هو أن شيطانه غلب إيمانه.
- ماذا تعني؟

ابتسم وقال:....

- هـذه هـي حـال الـدنيا... تَبْـيَضْ مـع الحطـب وتَسْـوَدْ مـع البيض! هههههههههه.

وضـحك ضـحكة طويلـة، فيهـا حكمـة وسـخرية مـن مفارقـات الحياة.

مـن مـوروث الوالـدة طيـب الله ثراهـا وادخلهـا جناتـه الواسـعة بإذنه تعال

7- حسن كاروب *

لم يكن حسن كاروب ينتظر رزقًا إضافيًا ليزداد قناعة بالحياة؛ فقد كان راضيًا بقسمته، شاكرًا لنعمته، مهووسًا بأرضه، صبورًا على رزقه. طالما يكرب أرضه ويزرعها، فلا يرتجي سوى عطفة السماء أن ترفد تربته بوابل المطر. كل شيء عنده محسوب بقدر، وتلك هي جوهر قناعته.
لم يكترث للظروف وإرهاصاتها رغم هوانه وكبر سنه؛ ففي كل عام يزرع أرضه بشتى المحاصيل، ثم يتأمل أن تدر عليه خيرها بهدوء. ذلك هو ديدنه منذ شبابه.
لكن الصدفة ولّدت منعطفًا غريبًا في حياته، أجبرته على تقبل واقع جديد دون أن يستوعبه. حلت عليه كالصاعقة، هيّجت نواميس فكره، وفجّرت الرزق بين يديه كينبوع ماء في لحظة غفلة. أزاحت عقد الحياة من طريقه، وتبدّل حاله، فغمرته راحة بال وسعادة لم يتوقعها قط. تلك الصدفة غيّرت نمط معيشته، وحرفت عجلة الزمن عن مسارها، فارتدى حلة جديدة صار يحسد نفسه عليها.
كل شيء من حوله بات ينطق بالعجب. السعادة التي كان يظنها حقيقية، لم تكن سوى تعاسة متنكرة، والوضع الذي كان يرتعد منه صار ومضة سعد تشع في رواق صبره. انقلبت آية حياته رأسًا على عقب، كأنما ركب مركب القدر وتخطى لعنات الحياة بثوب جديد فضفاض.
بدأت قصته مع الذئب حين همّ الأخير بمهاجمة بقرته الحلوب، لكنه جبُن أمام تأهب حسن، وارتبك في لحظة ضعف فأطلق ضرطة محرجة أمامه. خجل الذئب خجلًا مهينًا، اصفرّ وجهه، تراخت أطرافه، وخارت عزيمته. شعر

بمهانة وعار لصقا به، وأدرك أن عليه حل هذه العقدة، إما بمواجهة حسن، أو بهجر المقاطعة، أو بالاتفاق معه.
فكر الذئب مليًا؛ فهجر المقاطعة يعني التخلي عن مسقط رأسه، ومرتع طفولته، وخزين ذكرياته. كما أنه سيصبح موضع سخرية بين الحيوانات، وقد يفشي حسن سره، فيعرف القاصي والداني بقصته. وإذا ما هاجم حسن قد لا ينجح وإذا نجح فقد تجر عملية الثأر أولاده للانتقام منه لاحقًا.
وجد الذئب أن الاتفاق هو الحل الأمثل: على أن يكتم حسن سر ضرطته، مقابل أن يجلب له خروفًا كل صباح، بشرط ألا يبوح قصته حتى لزوجته. اتفق مع حسن على ذلك الشرط وإذا أخلا به سينتقم منه.
وافق حسن على مضض، فقد وجد نفسه داخل نفق مظلم لا مفر منه. رأى أن استغلال الموقف لصالحه هو السبيل لإعادة التوازن لحياته. فالأمر عنده تفاهة، لكن عند الذئب مسألة كرامة وهيبة.
وهكذا صار الذئب يجلب لحسن خروفًا مع آذان الفجر، وصار حسن وأسرته يأكلون هنيئًا مريئًا دون التفكير في عناء الغد. لكن مع توالي الخراف، بدأت زوجته تطرح الأسئلة. راودها الشك، وألحّت على معرفة مصدر النعمة، بينما ظل حسن عاجزًا عن البوح بسر من أين لك هذا؟... ذلك السؤال الذي أرهق ذهنه محاولا تجنبه، وهو غير مصدق ما حصل له من رغد وسعة في الرزق، أضحى يتهرب من سؤالها، يجيبها بإجابات مربكة غير مقنعة؛ بات محتارا بين الذئب والزوجة... خرافٌ تفتك بالسكينة
لم تعد إجاباته تطفئ نار فضولها، بل باتت تُشعلها. كانت تجد في كلماته استهزاءً صريحًا بشخصها، وكأنها لا تستحق الحقيقة. يقول لها ببرود:-

كُلي يا بنت الناس، الله يرزق من يشاء بغير حساب. أنت تعرفين زوجك، لا أحتمل السحت ولا الحرام. إنه رزق من الله وقدر مكتوب.
كلماتٌ أراد بها إرضاء الجميع: الذئب الذي يترصده في الظل، والزوجة التي تشتعل شكًا، والرزق الذي لا يريد أن يُغلق بابه. لكنه لم يدرك أن التوازن بين الأطراف المتناقضة لا يدوم طويلًا.
أما هي، فقد ملت أسطوانته المكررة، تلك التي لا تُشفي غليلها ولا تُرضي عقلها. أرادت تفسيرًا، أرادت الحقيقة، لا تبريراتٍ جوفاء. الفضول الذي سكنها لم يكن عابرًا، بل تحول إلى لعنةٍ تنهش نعمة البيت، وتُجفف عروقه. تلك الأفعى المختبئة في أحراش ذهنها، سمّمت فكرها، شلّت قدرتها على الفهم، وأوهنت قواها. البيت الذي كان يومًا مرفأً للسكينة، صار جحيمًا من الشك والكآبة، وصمتًا يصرخ في الجدران.
ارتفع دخان التعاسة، وصار الخلاف مرئيًا للجار، والزوج يخنس في زاوية اليأس. لم تهدأ، بل تأججت شكوكها بعفة زوجها. كيف له أن يأتي بالخراف؟ من أين؟ وهو لا يملك قوت يومه. أوهامها دفعتها إلى اتهامه بالخيانة، وكأن تلك الخراف جاءت كلعنةٍ على سعادة البيت. لم يشغلها شيء سوى سيرتها، حتى بات حل المعضلة من سابع المستحيلات، والفجوة بينهما اتسعت حتى وصلت إلى الطلاق.
هي ريفية، تربّت على الصدق والعفة، تحفظ الأحاديث وتؤمن بها: "إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به"، "ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا يُبالي المرءُ بما أخَذَ المالَ أمِن الحلال أم مِنَ الحرام". هذا الشرف لا يمكن أن تتخلى عنه، حتى في أسوأ الظروف. جذورها مغروسة في العزة، لكنها لا تريد أن تهدم جدار العشرة.

ما أرهقها هو تكتم زوجها، ذلك السر الذي يخفيه عنها، ذلك الذي يُشغل تفكيرها ليلًا ونهارًا.... أما حسن، فقد دحرجته الظروف بين فكي كماشة: الذئب والزوجة. لا يستطيع إفشاء السر خوفًا من انتقام الذئب، ولا يطيق مرارة العيش مع زوجة تشك فيه. البيت تصدعت جدرانه، والذهن فقد استقراره، والسعادة غابت عن الفراش.

خارت قواه، نبذ الألفة، خف نبض القلب، وكلّ البدن. الحياة لم تعد نزهة، بل صارت شقاءً بلا راحة، ومحبةً بلا دفء، وضحكًا بلا صدق. ترنح فكره بين سعادة الأمس ولهجة الحاضر التعيس. هو يعرف أنه يمسك برأس الخيط، يعرف قوته وامتداده. إنها معادلة الحياة: الربح والخسارة، الجهد مقابل السعادة، إفشاء السر مقابل رضا الزوجة. لكن... هل يستحق السر كل هذا الثمن؟

إذاً لا مفرّ من إفشاء السر للزوجة، علّ المياه تعود لمجاريها، وإلا فالنتائج ستكون وبالاً عليه وعلى الأسرة بأكملها. لكن الذئب لن يترك حسن على سجيته، فقد أحاطه بعيون ومجسات تراقب كل حركة وسكنة، حتى وهو راقد في فراشه. لقد وضعه تحت مراقبة مجهرية، لا يتهاون في شيء يمس كرامته أو شخصيته.

وفي إحدى الليالي، قال حسن لزوجته وهو في مضجعه:

- يا امرأة، كفي عن شكوكك. سأفشي لك سر الخراف، بشرط أن تكتمي الخبر في نفسك، تجنبًا لانتقام الذئب مني. عليك أن تثقي بزوجك، أن تكوني له سندًا لا عبئًا. مثلما يؤلمني الحال، يؤلمك، وما بيننا من عمر هو أكبر من كل أوهامك التي قضت على سعادة البيت، وربما ستقضي على الرزق الجاري.

- يـا زوجتـي العزيـزة، السـر هـو أن الـذئب ضـرط أمـامي، وطلـب منـي كتمـان الأمـر مقابـل أن يجلـب لنـا كـل صـباح خروفًا من الخرفان. وما عليك سوى كتمان السر.

وفـي صـباح اليـوم التـالي، وجـد حسـن الـذئب واقفًـا أمـام الـدار، دون أن يجلـب لـه خروفًـا كمـا اعتـاد. ارتبـك، فقـد رأى فـي ملامحه نزقًا وشرًا، فاستعد لمواجهته. سأله بحذر:...

- أراك لست على ما يرام، ما بك اليوم؟

فرد الذئب بحدة:..

- لقد أخلفت اتفاقنا بإفشائك السر لزوجتك.

ضحك حسن ضحكة ماكرة وقال:...

- مهـلًا يـا صـديقي العزيـز، لا تسـتعجل الأمـور. هنـاك أمـر هـام يخصـك، كأنـك لا تعلـم بمـا يُحـاك ضـدك فـي قصـر الملك.

قال الذئب بقلق:...

- أمر هام؟ ما هو؟

رد حسن:

- أنـت مراقـب مـن قبـل حاشـية الملـك، أنـت مطلـوب حيـا أو ميتا.

ارتبك الذئب وسأل:..

- أفصح! ماذا تقصد؟

أشار حسن إلى الأفق وقال:...

- أتـرى تلـك العجاجـة التـي علـت؟ تلـك الغبـرة التـي غلّـت الطريق؟

قال الذئب:....

- وما ذاك يا حسن؟

أجاب:..

- إنـه جـيش الملـك، يبحثـون عـن كبـد الـذئب ليجعلـوه دواءً لعين الملك.

ارتعد الذئب، وتوجس خيفة، ثم استنجد بحسن:...
- سامحني، سأكون في خدمتك وطاعتك طول عمري، فقط أرجوك أن تخبئني في بيتك، وسأعوضك عن إحسانك.

جلب حسن كيسًا كبيرًا (شوالًا)، وقال له:
ادخل هنا، فلن يراك أحد. ثق بي، سيظنونك من مؤن المنزل.
دخل الذئب المرتعب الشوال، فأحكم حسن سداد فتحته، ثم جلب هراوة غليظة كان يحتفظ بها لوقت اللزوم، وانهال عليه ضربًا حتى فاضت روحه. وهكذا خلّص نفسه من شره، وأغلق باب رزقه.
عاد حسن إلى زوجته غاضبًا وقال:
- لم تصبري على الرزق، فضولك الذي لا يكل ولا ينتهي أعماك. بئس التفكير السلبي وبئس العناد. كاد الذئب أن يفتك بنا لولا نباهتي. فرضتِ تعاسة على البيت، صبغتِ كل شيء جميل بلون قاتم، ذبحتِ سنين العشرةِ بالشك. لم تصبري على رغدِ العيش، لم تراعي عمري وانكسار ظهري في العمل. تلك القشة التي بحثتِ عنها قصمت ظهر البعير. الذئب عرف بإفشائي السر لك، تربصني أمام الدار، كاد يقتلني لولا حكمتي. يجب أن تدركي أن بعض الظن إثم.

* (هذه القصة من الموروث، كان قد حكاها لنا المرحوم الوالد العزيز، طيب الله ثراه).

* (هذه القصة من الموروث، كان قد حكاها لنا المرحوم الوالد العزيز، طيب الله ثراه).

8- فروة السبع *

في صباحٍ هادئ، التقى الثعلب باللقلق عند بركة ماء. وبينما همّ اللقلقُ بالتقاط سمكة دسمة، انقضّ الثعلب عليها بخفة، وحرمه من وجبته المرتقبة. شعر اللقلق بالإهانة، وغلى الغيظ في صدره، لكنه أخفى مشاعره، وتظاهر بالود، ثم دعا الثعلب إلى مأدبة غداء في بيته، مدّعيًا رغبته في صداقة حميمة.

انخدع الثعلب بحسن النية، ولبّى الدعوة في الموعد المحدد. جهّز اللقلق الطعام الحمص(اللبلبي)، وصبّه في صحن عميق لا يستطيع الثعلب أن يأكل منه، بينما التهم اللقلق الحبوب بسهولة. شعر الثعلب بالإهانة، لكنه كتم غيظه، ودعا اللقلق لردّ الجميل بوليمة في بيته.
وفي اليوم التالي، حضر اللقلق على مؤدبة الثعلب، وجهّز الثعلب صينية كبيرة مملوءة بالحساء، فراح يلحسه بسهولة، بينما عجز اللقلق عن تناوله. اشتدّ حنق اللقلق، لكنه حفظ عيضه في داخله. ثم قال للثعلب:

- أتود أن تتعلّم أسرار الطيران؟
- تفاجأ الثعلب، لكني ليس لدي جناحان.
- لا عليك اصعد على ظهري وستتعلم رويدا رويدا.
- صعد على ظهره وطار به عاليًا. شعر الثعلب بنشوة لم يعهدها، وقال:
- أشعر بمتعة عظيمة وخوف من الارتفاع... كم هي رائعة الحرية!

- صعد به اللقلق أكثر، وسأله: بماذا تشعر؟ ماذا ترى الآن؟
- الأشجار صغرت، والناس بدوا كالنمل.
- ثم ارتفع أكثر، حتى لم يرَ الثعلب شيئًا سوى سدم معتمة، وفجأة، رماه اللقلق من ذلك العلو الشاهق. وبينما يهوي كالشهاب، دعا ربه:
- — يا رب، أسقطني على فروة الراعي، كي لا تنكسر ذراعي.
- استجاب الله لدعائه، فسقط على فروة مرمية فوق بيدر تبن، ونجا من الموت. ارتدى الفروة، وعاد إلى داره، ممتنًا لنجاته، وقد تعلّم ألا يثق بمن لا يشبهه.
- في طريق العودة، قابله الأسد، وأعجب بالفروة التي يرتديها، فسأله:
- من أين لك هذه الفروة الجميلة؟
- ارتبك الثعلب، ثم قال:
- صنعتها بنفسي، إنها مهنتي التي ورثتها عن أبي وجدي.

طلب الأسد منه أن يصنع له فروة مماثلة، فوافق الثعلب، وطلب من الاسد أن يجلب له خروفًا يوميًا ليصنعها، مدّعيًا أن العملية تحتاج شهورًا من التنظيف والدباغة والتعقيم والتنعيم والخياطة.

وافق الأسد، وصار يجلب له خروفًا كل يوم، فنعِم الثعلب وعائلته بالرزق والحماية. لكن مع مرور الوقت، نفد صبر الأسد، وهدّد الثعلب إن لم يُسلّمه الفروة صباح الغد سينتقم منه.

أدرك الثعلب أن الخدعة اقتربت من نهايتها، فجمع عائلته، واقترح عليهم بتر أذيالهم جميعًا، كي لا يتعرّف الأسد عليهم.

نفّذوا الخطة، وربطوا أذيالهم ببعضها، ثم بتروا العقدة بحركة سريعة.
في صباح اليوم التالي، جاء الأسد يسأل عن فروته، فأنكر الجميع معرفتهم بها، وقال الثعلب:

- عن أي فروة تتحدث يا سيدي؟ نحن قوم حللنا هنا ليلة أمس فقط... هاجمتنا الذئاب، فاضطررنا للهرب إلى هنا. ثم لم يكن بيننا أتفاق مسبق، وليس لنا أية معرفة مسبقة بك، وليس لنا فكرة عن صناعة الفروة، نحن قوم ندعى ببيت البتران، أو عائلة البتران.

حين إذ نادى على زوجته، وأبنه، وأبن عمه، و... كل أفراد عشيرته ..
قال له:....

- أنظر يا سيدي كلنا بتران بالوراثة.

حين إذا أقتنع الأسد بتفسيرهم ووجهة نظرهم المعقولة، هؤلاء ليسوا هم من أتفق معهم، فمن هم الذين خدعوه؟؟؟
عاد خائبا مكسور الخاطر، يبحث عن الثعلب الماكر في جوف المستحيل، حينها إذ عَلِمَ بأنه كان مخدوعا طوال تلك الفترة...
فذهبت قصتهم مثلا يضرب بها على كل من يحاول أن يماطل في تأخير عمل ما، أو تأجيل عمل ما، شابه ذلك:..
(قصتك صارت مثل فروة السبع).
*.....
هذه القصة من موروثات المرحوم الوالد، طيب الله ثراه.

9- الأميرة والمؤذن *

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، امرأة حسناء، رشيقة القوام، تأسر الأبصار وتبهج القلوب، لم يتجاوز ربيع عمرها العشرين. متزوجة من شاب نبيل، عفيف، ذو شهامة ووسامة، لا يقل عنها جاهًا ولا مكانة. يعيشان في دارٍ وادعة قرب المسجد الكبير، في ضواحي بغداد، حيث الحفيف يلاطف الخرير، وحيث السكينة تهمس في الأركان.
كانت أميرة، كما يدل اسمها، متدفقة بالحيوية والبهاء، تتأنق كل مساء، ترتدي أقمشة السندس والإستبرق، تمشي ميّاسة، لطيفة، شفافة، كأن بشرتها من لدن الورق. تداعب زوجها بودّ وحنان، وتمرح بين الورود كالأطفال. سعيدة، عزيزة النفس، رشيقة البدن، كريمة، حليمة، لبقة، ذكية، لماحة، ملكة على عرش بيتها.
ورغم اكتمال بهجتها، كانت تفتقد جلسات السمر النسائية، تلك التي تروّض بها الذات، وتضفي على الحياة نكهة الأخبار، وبهجة الطرائف، وقهقهة النكات. فالمرأة، مهما علا شأنها، ومهما لمع قدرها، تبقى بحاجة إلى ألفة نسائية، إلى صديقة أو مجموعة صديقات، تبوح لهنّ بما يجيش في صدرها من شجون، وتسرّ بما يلامس النفس ويخدش الحياء. هكذا خُلقت، وهكذا يجب أن تكون بين النساء.
تحتاج إلى صحبة تزيح عنها شبح الوحدة، وتشاركها أحاديث لا ينبغي للرجل أن يحضرها. جلسات تفرغ فيها مكنونها، وتكسر بها رتابة الأيام، لتبقى إحداهنّ مرتعًا للألق والبهاء. فالمرأة جزء من فسيفساء الحياة: ناعمة، رقيقة، تحتاج إلى الألفة والرعاية، إلى الضحكة والنكتة، إلى التخاطر والمشاركة. ومن خلال قناطر الأفراح والأتراح، تدرك ذاتها،

فالشمعة لا تضيء إلا في الظلام، وهكذا هي المرأة، تسعى خلف لحظات البهاء لتمنح نفسها السكينة، خاصة في زمنٍ ضيّق عليها مساحة التألق، أمام عنجهية الرجل وسطوته.
في ذلك الزمان، كانت مقاهي النساء والملاهي العصرية معدومة، وأماكن الاستجمام والهيام شبه غائبة. كانت المرأة تعيش في عزلة، لا تخرج إلا بإذن، وإن خرجت منفردة، تعرضت للتنمر والذم، بفعل عقد العادات والتقاليد.
فالمرأة بطبعها أرقّ من الورق، وأشفّ من النسيم، وأنعم من فراء القطن. سلاحها أنوثتها، وسيفها جمالها. تهفو من همسة، وترقّ من لمسة، وتنساب كنسمة، يشتاق لها الزهر والحجر، كضوء الشمس ورواء المطر. وفي ذات الوقت، هي أحدّ من السيف، وألسع من النار إذا ما غضبت. هي محور البيت، تضفي عليه المرح متى أشرقت، وتكلله بالحزن متى اعتلت. حساسة، رقيقة، سريعة التأثر، فلا غرابة أن تتباهى بلباسها، وزوجها، وجواهرها أمام الملأ.
تستمتع بأحاديث النساء، تتابع أخبار الزواج والطلاق، تتصف بالفضول، وتُشغف بفرض شخصيتها، وتبتهج حين يلمع حضورها في أعين من حولها. فلا بد لها من صداقة تروّض بها الذات، وإلا أصبحت حجر عثرة في طريق سعادة زوجها.
***
خلال تجوالها في الأسواق، تعرّفت أميرة على جارتها أميمة، امرأة لعوب تقاربها في السن، خبيرة بخفايا الحي وأسراره، تعرف ما يدور خلف الجدران وتحت الجحور. كانت أميمة من روّاد جلسات السمر الأسبوعية في بيت "الداده" أو "الشيخة" كما تسميها النسوة، وهي امرأة طاعنة في السن، تجمع في دارها النساء ليتسامرن، يتبادلن الحكايا، ويستطلعن

حظوظهن على يد قارئة الفنجان، وسط دخان النرجيلة ورشفات القهوة والشاي، لقاء مبالغ زهيدة.
في ذلك البيت، تُعقد صفقات سرية، وتُنسج خيوط العلاقات من تعارف وفراق، حب وغرام، زواج وطلاق. تُروى فيه القصص الشجية، وتُتداول مشاكل الناس كما لو كانت فصولًا من ألف ليلة وليلة. بيت الداده أشبه بنادٍ اجتماعي، لا خطوط حمراء فيه، تُذكر فيه الأسماء بالسلب أو الإيجاب، وتُكشف فيه الأسرار كما تُكشف الوجوه.
المدينة التي تحتضن هذا البيت معمورة بالخضرة والبساتين، يخترقها نهر دجلة، وتظللها أشجار الزيتون والنخيل. يتنقل أهلها بالعربات المسحوبة بالحصن برًا، وبالكلك والابلام نهراً، وتضيء طرقاتها ليلاً الفوانيس والمسارج الزيتية، قبل أن تعرف الكهرباء طريقها إليها.
وكان المؤذن يصعد منارة المسجد خمس مرات في اليوم، يؤذن للناس، لكنه في كل مرة كان يسرق نظرة إلى بيت الحسناء "أميرة"، تلك التي سلبت قلبه وأعمت بصيرته. يتأملها طويلاً، حتى تشتعل أحشاؤه بنار الجوى، لا يملك مقاومة هواه، ولا يهدأ له بال إلا برؤيتها. صار يرتقي المئذنة قبل الأذان بوقت، يتلصص على جمالها، وأحيانًا يتأخر عن الأذان، غارقًا في خيالاته. حين يراها تتمختر كالغزال بلباس شفاف، تميل به المئذنة كما يميل الغصن، فيزعق بالأذان ليجذب انتباهها، لكنه لا يلفت إلا أنظار الناس، أما هي، فظلت أبية، لا يغنيها عن حب زوجها شيء.
ذلك المؤذن المراهق يسكن قرب بيت الشيخة، على ضفاف دجلة، شبه عازب بعد أن هجرته زوجته لزيغ عينيه وطيشه.
أما أميرة، فقد شكت لأميمة وحدتها، فنصحتها بمرافقتها إلى بيت الداده، لتكسر رتابة أيامها، وتتعرف على نساء جدد، وتسمع قصصًا حقيقية وخيالية. استأذنت زوجها، الذي نادرًا

مـا يـرد لهـا طلبًـا، وذهبـت معهـا فـي أحـد أيـام الخمـيس. هنـاك، استأنسـت بجلسـات السـمر، شـعرت لأول مـرة بأنهـا حـرة، قريبـة من المجتمع، تتلمس تنوعه، وتدرك أن فيه الصالح والطالح.
تعرفـت علـى نسـاء كثيـرات، صـاحبت بعضـهن، ونفـرت مـن أخريـات. وكـان لأميمـة الـدور الأكبـر فـي نـزع وشـاح الخجـل عـن وجـه أميـرة، روّضـتها بلطـف، وعرّفتهـا علـى عـالم جديـد.
اسـتمعت أميـرة لقصـص النسـاء التعيسـات، ممـن يفضفضـن دون خجـل، فحمـدت الله علـى نعمـة الألفـة بينهـا وبـين زوجهـا، وعلى رقيه الذي يميّزه عن سائر الرجال.
شدّها حديث قارئة الفنجان، حين قالت لها:
ينتظـرك مسـتقبل مشـرق، هنـاك مـن يحيـك الغـدر ضـدك، وسـتكونين سـيدة بـارزة فـي المجتمـع خـلال سـتة أيـام، أو سـتة أشهر، أو سنة..
منـذ تلـك اللحظـة، تقرّبـت منهـا العرافـة، وصـارت تناديهـا بـ"الخاتون"، لما رأته فيها من رقيّ وهيبة.
لكـن أميـرة لـم تشـغل بالهـا كثيـرًا، فهـي لا تـؤمن بالبخـت، وتـدرك كـذب المنجمـين ولـو صـدقوا. كانـت رزينـة، حكيمـة، أميـرة فـي كـل تصـرف، لـذا أحبهـا المجتمـع النسـوي، لسـماحتها، ولباقتهـا، وجمالها، رغم أنها لم تكن مدركة تمامًا لنوايا من حولها.
كانـت تنقـل كـل مـا يحـدث فـي بيـت الشـيخة لزوجهـا، مـا رأتـه، ومـا سـمعته، ومـا دار مـن طرائـف وأخبـار، فـزاد ذلـك مـن حـب زوجهـا لهـا، ومـن ثقتـه بهـا، حتـى بـات لا يمـانع ذهابهـا إلـى بيـت الداده، طالما أنها تعود أكثر سعادة وحيوية.
وفـي إحـدى الجلسـات، شـاع خبـر مـرض ملـك الـبلاد، وتـداولت النسـوة الحـديث عـن مـن سـيخلفه، إذ لا وريـث شـرعي لـه. سـألت أميرة زوجها، الموظف المرموق في البلدية:

أحقًا أن الملك على فراش الموت؟" فأجابها: "يقولون ذلك، والله أعلم. أسرار القصر لا يطلع عليها أحد، ويُقال إنه كتب وصية لن تُقرأ إلا بعد وفاته، أمام الملأ.
تكررت زيارات أميرة لبيت الداده، حتى أصبحت جزءًا من روتينها، لا تستغني عنها، تجد فيها التنوع، والغرابة، والألفة. وتوطدت علاقتها بأميمة، فأخذت منها الضحكة والمكر، وأعطتها العفة والرزانة. تلك الفوارق جعلت كل واحدة تتمسك بالأخرى، كأن كلٍّ منهن كانت بحاجة إلى الأخرى.
أميرة لم تعد تذهب للأسواق أو بيت الشيخة إلا برفقة أميمة، أعجبت بحسن تعاملها مع الباعة والسماسرة، وساعدتها في تجاوز كثير من العقبات، وقّرت عليها الوقت والمال، خاصة في شراء الأقمشة النسائية الراقية التي كانت تستهويها.
***
في كل خطوة تخطوها أميرة، كان المؤذن يتعقب أثرها، يترصد حضورها، ويتتبع علاقتها الوثيقة بصديقتها أميمة. وقد حاول مرارًا أن يستدرج أميمة، عارضًا عليها رشوة مقابل أن توقع بصديقتها في فخ علاقة آثمة، لكن أميمة صدّت محاولاته، لما تعرفه عن أميرة من عفة وكرامة وكياسة، فهي ليست من النساء اللواتي يُؤكل لحمهن، كما يقال.
وبحكم صداقتهن، أطلعت أميمة أميرة على نوايا المؤذن الخبيثة، محذّرة إياها من الوقوع في شراكه. أما أميرة، فلم تخبر زوجها بما دار، إذ لم تعر الأمر أهمية، ورأت في محاولات المؤذن تفاهة لا تستحق الرد، ولا يمكن لها أن تنال منها. كانت تدرك أن إثارة الموضوع قد تجر وراءه فضائح لا تُحمد عقباها، وهي لا ترغب في إشعال نار لا وقود لها، فليس من الحكمة أن يُحاسب الإنسان على نواياه ما لم تُترجم إلى أفعال. لذا آثرت أن تبقي الأمر في حجمه الطبيعي، دون

تضخيم أو تهويل، خاصة في مجتمع يطبل للباطل بأيدٍ وأرجل.
وبعد أن أعيته الحيل، وعجز عن إقناع أميمة، بدأ المؤذن يبحث عن مفاتيح جديدة لاقتحام حصن أميرة المنيع. فلم يجد أقصر طريقًا من الشيخة "الداده"، التي اعتاد أن يرى فيها بوابة لكل مآربه، مقابل دنانير بخسة يدرها عليها. فالشيخة، بطبعها الطامع وخبرتها الطويلة، لا تمانع في تسهيل مثل هذه العلاقات الدنيئة، طالما أنها تدر عليها المال، وتضيف اسمًا جديدًا إلى سجلها الأسود، ذلك السجل الذي ينهال عليها ذهبًا من حين لآخر.
وقد خصصت غرفة معزولة في دارها لهذه الأغراض، لا يدخلها إلا من كان "صاحب شأن"، مجهّزة بسرير قطني، وحمام صغير، ومطبخ يحتوي على بعض المسكرات، من نبيذ وخمر وفواكه، وباب خلفي يؤدي إلى الفنار المطل على شاطئ النهر.
وفي إحدى جلسات السمر، كانت النسوة منشغلات بقارئة الفنجان، كل واحدة منهن تبحث عن ذاتها في عنق الزجاجة، غارقات في إرهاصاتهن ومشاكلهن. استدعت الشيخة أميرة، بلقبها المحبب "الخاتون"، إلى الخلاء الخلفي، بحجة أمر هام وسري، مستغلة مكانتها وعقلها الراجح. وبحسن نية، تبعت أميرة خطوات الشيخة، حتى أدخلتها الغرفة المعنية، وأجلستها على السرير، ثم قالت:
أمهليني خمس دقائق، سأعود إليك بسر هام وجدي.
لكنها لم تعد. أوصدت الأبواب الداخلية والخارجية، وعادت إلى جلسات السمر، تدير شؤونها وكأن شيئًا لم يكن، تاركة أميرة وحيدة في غرفة فريسة للمؤمن، أُعدّت للغدر، لا للضيافة.

أمـا أميـرة بقيـت وحيـدة عالقـة فـي الغرفـة تنتظـر عودتهـا دون جـدوى، خالهـا الشـك مـن سـعي شـيخة ومـع ذلـك فضـلت الانتظـار لتعـرف الخبـر اليقـين، كـان للفضـول دور فـي تكبيلهـا، وهـو الـذي شـرع فـي بلـورة فكـرة الجلسـات، فمعرفـة الأسـرار غايـة تـود خوض غمارها

أميرة بين فكي القدر

لـم تمـضِ لحظـات حتـى انفـتح البـاب بصـوتٍ مريـب، فتأملـت خيـرًا، ظنّـت أن الشـيخة قادمـة، لكنّهـا فوجئـت بـالمؤذن يـدخل الغرفـة، مرتـديًا ثوبًـا أبـيض كأشـباح القصـص الخياليـة. ارتجـف قلبها، وغطّت وجهها بوشاحها، وسألته بتوجّس:

- من أنت؟ كيف دخلت؟ ماذا تريد؟

أجابها بصوتٍ متهدّج:

- أنـا مـن عصـفت بـه ريحـك فذرّتـه أشـلاء بـين أشـواك اليبـاب. أنـا مـن فقـد النـوم وصـار ينـاجي القمـر، أنـا مـن قيدتـه زنزانـة حبـك، أنـا قـيس الملـوّح، أنـا مـؤذن المسـجد، وأنا... مجنونك.
- وما تبغي مني يا قيس؟
- كـل شـيء فيـك يأسـرني... هجـرت زوجتـي، وانشـغلت بك، ولن يهدأ لي بال إلا برضاك.

أدركـت أنهـا وقعـت فـي فـخ الـدادة ومصـيدة المـؤذن، فقـررت أن تخـرج مـن المـأزق بـدهاء. تـذكّرت حـديث أميمـة عـن هـذا المعتوه، فخلعت وشاحها، وابتسمت له برقة، وقالت:

- حسـناً يـا قـيس، لـن أمنـع نفسـي عنـك، طالمـا أنـك تعشقني... لكن بشروطي.

وافـق، فسـألته عـن المبلـغ الـذي دفعـه للـدادة، فأجـاب: عشـرة دنانير. أعطته المبلغ، وقالت:

- خذ مالك، أنا لا أبيع جسدي، بل أهبه لمن يستحق.

ثم طلبت منه أن يخلع ملابسه ويجلس على السرير القطني بينما تستحم. نفّذ ما طلبت، فأخذت ملابسه ودخلت الحمام، وأوصدت الباب، وفتحت صنبور الماء لتوهمه بوجودها، ثم فتحت النافذة وقفزت منها، هاربةً تحت جنح الليل.
ركضت نحو الشاطئ، مزّقت الأشجار ثيابها، وخدشت ساقها، لكنها لم تتوقف. دفنت ملابس المؤذن بين الأحراش، ثم واجهت حارسًا ليليًا حاول استغلالها، لكنها خدعته بعد أن وافقت رأيه حتى جردته من ثيابه. عندها سرقت سلاحه وثيابه، وهددته بالقتل.
ارتدت زيّه، وأخفت شعرها تحت القبعة، وصعدت القارب متجهة إلى بغداد. لم يلحظ أحد أنها ليست شرطياً، سوى البلام الذي ارتاب في أمرها.
وصلت الضفة الأخرى مع بزوغ الفجر، وجلست على جرف الشاطئ تستعيد أنفاسها، وتفكر في زوجها، وفي الذنب الذي يثقل قلبها. سارت في طرقات مجهولة حتى وصلت إلى ساحة كبيرة يتجمّع فيها الناس.
سألت امرأة عجوز تبكي بحرقة، فأخبرتها أن الملك الطيب قد مات، وأن اختيار الملك الجديد سيكون عبر "طير السعد" الذي سيحط على رأس من يستحق العرش.
وقفت تشاهد الكرنفال الذي يعد نادرا، أُطلق الطير، فدار مرتين، ثم حطّ على رأس الشرطي أميرة. صُدم الجميع، وأعيد إطلاق الطير، فحطّ عليه مرة أخرى. عندها أعلن رئيس الوزراء تتويجها ملكة، وبعد أن روت قصتها، تعاطف معها الجميع.
احتفلت البلاد، وارتدت تاج العرش، وأصدرت قرارات حاسمة:
إحالة الشرطي للتقاعد.
فض مجالس الشيخة.

سجن الشيخة عشر سنوات.
الحكم بالمؤبد على المؤذن.
تبرئة البلام.
تعيين أميمة وصيفة، والعرافة حكيمة.
احتضان زوجها وتنصيبه ملكًا بدلًا عنها.
وهكذا، من بين رماد الخديعة، نهضت أميرة ملكةً، لا بقوة السلاح، بل بدهاء العقل، وصدق القلب، وجرأة المصير.

.

*(هذه القصة من الموروث، روتها لي أمي الغالية يرحمها الله وأحسن مثواها، فصغتها بأسلوب شيق).

10- الطرائف في استكان الشاي

- الطرائف في استكان الشاي
عبدالحسين الجايجي: نكهة الطيبة والطرافة
عبدالحسين الجايجي، الرجل الطيب، صاحب النكتة اللاذعة، ذو الملامح العربية الأصيلة: وجهٌ أسمر، قامةٌ فارعة، وجسدٌ رشيق، يكسوه شعرٌ أشيب مشطّى فوق أذنيه، وسحنةٌ شرقية تنضح بالبداهة والكرزمة. كان عنوانًا للبساطة والألفة، لا يُقاوم حضوره، ولا تُملّ مشاكساته.
رغم كبر سنه، وتعبه النفسي، ومشاكله المادية، ظلّ محتفظًا بروحه المرحة، وحركته الدؤوبة، ولسانه الطليق. يخلق من شجون الناس بسمة، ومن تعاستهم طرفة، وكأنه يجلّي النفوس من همومها. كان قريبًا من الجميع، يسأل عن أحوالهم، يواسيهم، ويضحكهم، حتى صار أقرب إليهم من قربهم إليه.
عيناه الغائرتان تحكيان شقاء السنين، وقد عفرت الفاقة وجهه بخطوط الصبر. يحمل في نظراته حيرةً كأطيارٍ تخفق في سماء فكره، يلفظها حسرات دخان من سيجارته التي لا تفارق فمه، وكأنها رفيقة دربه في رحلة الضنك.
كان كشكه الصغير، بجانب دكان محمود دبه في سوق جلولاء، مركزًا للبسمة والونس. خمسة كراسٍ بلاستيكية، نضيدة صغيرة، وموقد في العراء، وسلطانية ألمنيوم لغسل الأقداح. زبائنه من أصحاب الدكاكين المجاورة، ومن المارة، ومن أصدقاء الطفولة الذين عرفهم منذ أن كان جنديًا في لواء 19 بقيادة عبدالسلام عارف قبل ثورة 14 تموز.
كان عبدالحسين (أبو حافظ) يستقطب زبائنه بروحه الخفيفة، وضحكته المعبّأة بشوكولاتة القهقهة، ونكاته اللاذعة التي لا تُنسى. رغم الحزن الذي يسكن ملامحه، كان بارعًا في رسم

البسمة، وفي تخدير الشاي الثقيل بنكهة عراقية أصيلة، يطربنا بمواويله الريفية، ويُضحكنا بطرفه التي لا تُمل.
ذات صباح، مرّت عليه أم صباح، امرأة قصيرة، بدينة، ذات مزاح متجذر، وقالت له:
صباح الخير أبو حافظ، أشوفك أمتخنخ اليوم، الظاهر على وفاق مع أم حافظ!
فردّ ضاحكًا:
لذلك تريننني مبهدل، هارب من الفجر لأشغل نفسي بالمقهى!
جلست قليلاً، فقدم لها استكان شاي، وقال:
الدنيا ما تسوى أن نغتر بأنفسنا في هذا المخاض العسير... أسمعي يا أم صباح، هذه الطرفة:
امرأة في أول أسبوع من زواجها قالت لزوجها: "أراك تنظر في ورقة عقد القران، عن ماذا تبحث؟"
فردّ بهدوء: "أبحث عن تاريخ انتهاء العقد!" هههههههههه
ثم أضاف لها:
ـــ كأنك كيس طحين وتقولين أنا متعبة! ماذا تختارين، بندول أم حبة العافية؟ (وهي حبة تؤدي إلى إسهال شديد)
ضحكت، وقالت:
أنا فقط مشغولة بابني صباح، تأخر من الجبهة.
فردّ:
لا تقلقي، ربما تعلق ببنت بصراوية، لأجلها نساكم!
يوم المنى حين يتزوج
وقبل أن تغادر، طلبت منه طرفة أخيرة، فقال:
طالب كسلان لم يذهب لاستلام نتيجته، فأرسل أخاه وقال له: إذا كنت رسبت في درس قل لي "محمد يسلم عليك"، وإذا بدرسين قل "محمدين يسلم عليك". عاد أخوه رآه جالسا قرب أبيه فقال له: "أمة محمد تسلم عليك!" هههههههههههههههههه

فن إلقاء النكتة لا يتقنه إلا الماهرون، وكان عبدالحسين من أمهرهم. رغم عمره الخمسيني، بدا أكبر من ذلك، لشظف العيش وقلة الراحة. صار قطبًا من أقطاب سوق جلولاء، يرتدي بدلة رمادية، وقميصًا نيليًا أو أبيضا، وينتعل صندلًا يسحل به الطرقات. سيجارته المتقدة في فمه لها كبرياء، لا تسقط، كأنها عقدٌ أزلي بينه وبين الدخان.

حين نصحته يومًا بترك التدخين، قال لي:...

يا بني، السيجارة قتلت أمي وأبي! فبيننا ثأر قديم، هل سمعت أحدًا ترك قتال والديه؟!

ضحكت، ورددت:

لا، أكيد لا، وهل يجوز ذلك؟!

عبدالحسين الجايجي كان شجرة ظلّها يفرش الطمأنينة، شخصية هلامية، معجونة بخميرة الطرفة والكلمة الطيبة، رغم تعاسة الحال. صبره الجميل صقله، وجعل منه جدارًا يضحك رغم التعرية، يغزل الطرائف كغزل بساط الشعر، ويمزج بين الروح والكلمة، فتخرج الطرفة منمقة. هو لبنة من طين الجنوب الطيب، وابتسامة في وجه نكد الدنيا، ومرآة لزمن الطيبة والقناعة.

***

في أحد أيام الصيف، كنت أصغي إليه وهو يتحاور مع محمود دَبّة قبل دقائق من أذان المغرب. محمود رجل قصير القامة، أبيض البشرة، نحيف، أملط، معروف في الحي ببيع قوالب الثلج والمرطبات. أراد أن يعظ عبد الحسين الجايجي، فقال له بنبرة جادة:

يا عبد الحسين، مضت أيام الشباب، ولم نعد نحتمل المهاترات واللعب. لعبنا كثيرًا، وحان وقت الجد. آن لك أن تلين وتترك زجاجة الخمر، تعال معي إلى طريق العبادة، فما بقي من العمر ما يُعوَّل عليه.

ضحك عبد الحسين ضحكة طويلة وقال ساخرًا:
هههههه، سبحان مغير الأحوال! كنت تشرب الخمر بالطاسة، والآن صرت واعظًا! يا سبحان مغير الأحوال، غير حالي... هههههه.
رد عليه محمود وقد بدا عليه التأثر:
ذاك زمن ولى، كنا قد انحدرنا في طرق الغي، ولم نكن نعي عواقب الدنيا. غدًا، حين تموت، ستتوسل إليّ لأتوسط لك كي تدخل الجنة.
قهقه عبد الحسين مجددًا وقال:هههههههه
لا لا، لن أتوسل إليك! حسن لطيف موجود! هههههه (وكان حسن لطيف غريم محمود في بيع الثلج). ثم هل أنت واثق أنك ستدخل الجنة؟ ليش هي هونطة؟! هههههه... أما نحن، إن ضاقت بنا الدروب، سنسلك طرقًا أخرى. هههههه
وقبل أن يودعه، ذكر عبد الحسين طرفة قائلاً:...
قجغجي (مهرب) مات، وكانت حسناته تساوي سيئاته، فوضعوه في منطقة وسطى بين الجنة والنار. الملعون صار يهرب أهل النار إلى الجنة مقابل مبالغ زهيدة! هههههههه...

ضحك محمود وقال:هههههههه
حلوة! اسمع هذه النكتة:
رجل سكران، أول مرة يشرب الخمر في حياته. لعبت الخمرة في رأسه، نزل إلى الشارع العام، أوقف سيارة تكسي، وسأل السائق:
هل أنت فاضي؟
نعم، فاضي كما ترى.
قال له السكران:
طيب يا طيب، انزل خلينا نسولف! هههههههه.

وفي تلك اللحظة، صدح الأذان لصلاة المغرب: "الله أكبر، الله أكبر".
عندها، اتجه محمود إلى المسجد، تاركًا عبد الحسين الجايجي على كرسيه، يتأمل يومًا أفضل من يومه القانت.
***
كثيرًا ما كنت أفطر في مقهى عبد الحسين الجايجي، بعد أن أبتاع صمونة محشوة بالقيمر من المعيديات - مربيات الجاموس وبائعات القيمر والروبة- اللواتي يفترشن الأرض بصوانيهن أمام محل "الباتا" للمرحوم عبد الرحمن الجلبي، قرب القنطرة الوسطية التي تربط محلة الطليعة بمحلة الوحدة، في قلب السوق. كنت أرتشف الشاي على مهل، وأتأمل صباح المدينة وهو يتثاءب.
في أحد الصباحات، دخل أحمد دوندرمه إلى المقهى مرتديًا زيًا عسكريًا، يستعد للالتحاق بالجبهة ضمن قاطع الجيش الشعبي. أحمد رجل بدين، طويل القامة، ذو كرش مترهل، تجاوز الأربعين، وكان دكانه يقابل المقهى مباشرة. جلس ليشرب الشاي، فبادره عبد الحسين الجايجي مازحًا:
— ولك وين رايح؟ هو أنت مال حرب؟ ما تشوف كرشك الهادل؟
ضحك أحمد وقال:
— يا أبو حافظ، ماذا نعمل؟ حكم القوي على الضعيف. حسين عبد الله ومحمود رمضان ما خلّونا بحالنا! (وكانا من مسؤولي الحزب المشرفين على جمع فلول الجيش الشعبي في المنطقة).
ضحك عبد الحسين وقال:
— أسمع يا أحمد، يقال إن رجلاً سأل إمام المسجد: "يا شيخ، أنا اليوم أكلت سمكة وصحن طرشي، وبعدين تذكرت أني صائم... شسوي؟"

فأجابه الإمام:...
ـــ اعمل استكانين شاي! هههههههه...

ثم أردف عبد الحسين بطرفة أخرى:
ـــ يقال إن آمر لواء زار أحد الملاجئ، فوجد جنديًا قد وضع صورته بين صورة صدام والخميني. غضب الآمر وسأله: "ما هذا؟"
فقال الجندي: "سيدي، هذا قائد الأمة" مشيرًا إلى صورة صدام، "وهذا أمام الأمة" مشيرًا إلى صورة الخميني.
فسأله الآمر: "والذي في الوسط من هذا؟"
فأجابه الجندي: "متناكة أم أمه!هههههههههههههههه...
قالها وهو يضحك بحرقة، وكأنه يصف حاله بين المطرقة والسندان.
كان صباحًا مليئًا بالضحك، فصلًا من البهجة الشعبية، انتهى بتوديع أحمد إلى الجبهة، وسط دعابات خففت وطأة الرحيل.
الضحك، يا صاحبي، ليس مجرد رد فعل عابر، بل هو شكل من أشكال التعبير عن الفرح، ينظمه الدماغ، ويعكس نوايا الإنسان ويزيد من تفاعله الاجتماعي. أحيانًا يكون معديًا، يجرّ الآخرين إلى دائرة البهجة دون مقاومة.
وله فوائد صحية لا تُحصى: يخفف من ضغط الدم، يذيب الكوليسترول المتراكم في الشرايين عبر إفراز هرمون الكورتيزون، ويمنح القلب راحة غير مباشرة. الضحك ينعش الذاكرة، يشد عضلات الوجه والحنجرة، يقلل من الشخير، ويمنح الإنسان وسامة وثقة بالنفس، بل ويزيد من قدرته الإبداعية.
فاضحك، تضحك لك الدنيا. وإن ضحكت من القلب، فقد ربحت لحظة حياة.
****

في أحد الأيام، التقى عزيز الحلاق بإبراهيم بلور في دكان الأخير. كان اللقاء على استكان شاي من يد حسين جايجي، كما جرت العادة في جلولاء، حيث لا يُشرب الشاي إلا مصحوبًا بحكاية أو نكتة.
عزيز، أشهر حلاق في تاريخ جلولاء، لم يكن مطلوبا لمهارته في الحلاقة فحسب، بل لخفة دمه وروحه المرحة. قصير القامة، بدين الجسد، يتقدم كرشه على صدره، وكان حضوره في أي مناسبة كفيلًا بتحويلها إلى مهرجان من الضحك والفرح.
أذكره جيدًا في عرس أخي الأكبر عام 1968، حين ارتدى بنطالًا أزرق وقميصًا أبيض فضفاضًا، وكان لا يزال في مقتبل العمر. جرت العادة أن يُحلق العريس في يوم الحناء وسط احتفال الأهل والجيران، حيث تُرص الكنبات في ساحة المحلة على شكل مربع، ويجلس العريس في الوسط، وإلى جانبه طاولة عليها أدوات الحلاقة وقارورة صغيرة من عرق المسيح، يرافق عزيز اثنان من عازفي الطبلة والرخ (الجنزار).
استمرت الحلاقة قرابة ساعتين، وفي كل حركة مقص أو سحبة مشط، كان عزيز يرتشف قمعًا صغيرًا من الجعة، ويؤدي رقصة رشيقة حول العريس، يغني بصوته الشجي أغانٍ شعبية، منها مربعات فاضل رشيد، وأغنية "يا حمام"، و"يا حلو شعرك حرير" لحسين السعدي، وأغانٍ تركمانية مثل "هلهله ويرن بوينه" لمحمد قلاي. كان بحق محور الفرح، يضفي على العرس بهجة لا تُنسى.
وفي أواخر عام 1988، التقى عبد الحسين الجايجي بعزيز في نادي جلولاء السياحي، وتعالت ضحكاتهما على ذكريات الماضي. دار الحديث حول شخصية وهمية تُدعى "أبو فخري"، يتداول الناس اسمه في الطرائف.

قال إبراهيم بلور لعزيز:
ـــ احكي لنا نكتة من نكاته.
فقال عزيز:
ـــ تحدث أبو فخري في مقهاه لمجموعة من الزبائن عن مغامراته، قائلاً: في إحدى ليالي الشتاء، فزّ ابني فخري من نومه وهو يبكي ويطالبني أن أجلب له ذئبًا ليتسلى به. كان عمره خمس سنوات. آلمني بكاؤه، فخرجت إلى الوديان أبحث عن الذئاب. وبعد مغامرة طويلة، تمكنت من غبط ذئبين تحت إبطي وعدت بهما إلى البيت. لكن فخري كان قد غطّ في نوم عميق، فأودعت الذئبين في غرفة متروكة وأقفلت الباب. وفي الصباح، أخذته من يده وقلت له: "جلبت لك ذئبين جميلين يا فخري". فرح فرحًا شديدًا، وما إن فتحنا الباب حتى أصبت بالدهشة!
سأله الزبائن:
ـــ ماذا حصل يا أبو فخري؟
قال:
ـــ الذئبان، أحدهما أكل الآخر، ولم يبقَ منهما سوى الأذناب!
ـــ هههههههههه...
علت الضحكات، فقال إبراهيم بلور لعبد الحسين:
ـــ رد عليه إن استطعت يا أبا حافظ! اسعفنا بنكته ثانية من نكاته!
فقال عبد الحسين:
ـــ مغامرات أبو فخري كثيرة. يروي أنه ذهب يومًا إلى البراري ليصطاد الغزلان، لكن الشمس غربت دون أن يرى غزالًا. وبين الأحراش، لمح عينين تلمعان، فظنها غزالًا، ونحرها بسكينه، فإذا بها نمر أرقط! خرّ صريعًا مضرجًا

بدمائه. ولثقل وزنه، وضع فخذًا على كتفه الأيمن وآخر على الأيسر، وسحل به الطريق عائدًا للبيت.
وفي تلك اللحظة، دخل زبون إلى المقهى طالبًا استكان شاي، فاستأذن أبو فخري من جماعته وقال: سأكمل لكم القصة لاحقًا بعد خدمة الزبون.
وعندما عاد، سألهم:
ـــ يا جماعة، أين وصلنا في القصة؟
قالوا:
ـــ فخذ على الكتف الأيمن وفخذ على الكتف الأيسر.
قال:
ـــ ونيك حتى الصباح! هههههههههههههه
ـــ هههههههه...
كنت جالسًا في محل إبراهيم بلور أستمع لتلك الطرائف الجميلة، في أيام كنا نصبّ الدموع على قوافل شهداء الحرب، وكان للضحك وقعٌ خاص، لا يُنسى.
وقبل أن أسافر إلى اليمن بفترة قصيرة، رأيتهم يخرجون من باب المسجد الكبير بعد صلاة العصر، يحمدون الله على الهداية، يسيرون جنبًا إلى جنب مع طيب الذكر الملة حسن، قارئ القرآن المشهور، طيب الله ثراهم أجمعين. حينها التقاهم السيد كامل محمد مطشر، ملاطفًا عبد الحسين:
ـــ أبو حافظ، الحمد لله على الهداية، لا أنسى نكاتك الحلوة، بالله اقحمنا بنكته سريعة على الماشي!
فقال عبد الحسين:
ـــ صار يا طيب، يقولون سودانية لبست فستانًا أحمر، قالت لزوجها: دلّعني يا زول.
فقال لها:
ـــ أنتِ يا فحم يا مولّع! هههههه...
ضحك كامل وقال:

ـــ أسمع هذه يا أبو حافظ: بخيل حلم بأنه يوزع فلوسًا في المنام، فأقسم على نفسه ألا ينام مرة أخرى! هههههههه...
وبعد أن سافرت، وافاهم الأجل. رحمهم الله وأحسن إليهم. كانوا شموعًا تنير المدينة، ماتوا ولم نعرف لهم طائفة أو حزبًا يمجدونه، بل كانوا يمجدون الحياة ببساطتهم وطيبتهم.

11- لغة العود والحجر *

لم يخطر ببال سعيد يومًا أن تكون الآنسة بثينة خليلته المقربة، تلك التي تغنيه عن سواها، بما تمتلكه من حسن وفتنة ونباهة ورجاحة عقل. لطالما تأملها مليًّا، ولم يغفل عن ذكر اسمها حين يتحدث عن الصفات النادرة، والحيوية، والأنوثة، وخفة الظل، واللباقة. كانت بثينة تتربع على عرش النساء، لا لجمالها فحسب، بل لما تمتلكه من شأن وجاذبية وكياسة.
تميّزت عن قريناتها، فغدت من صفوة نساء القرية، كجبل شامخ يزهو في نظر من يعنيه الأمر، يصعب تسلقه دون فكر ثاقب. كثيرون تمنّوا الاقتران بها، لكن معضلة الكمال وقفت حائلًا بينهم وبين الاقتراب منها. أما سعيد، فقد وضع نصب عينيه مقارنة نفسه بكمالها، كأنه يحاول ردم الجدار الفاصل بينهما، منتظرًا منها الضوء الأخضر ليشرع في التفكير بها.

لكن حياءها منعها من قدح الإشارة، فازدادت العقدة تعقيدًا، ولم يقوَ على فك رموزها. لم يشأ أن يكون ضحيةً لرفضها، فكرامته فوق كل اعتبار، وعدم يقينه من قبولها به، وضعف تجربته، حائلا بينه وبين تطلعاته نحوها. فآثر الصمت والتأني، رغم أنه لا يقل عنها شأنًا، فهو ابن مشيخة وسليل حسب ونسب، كما هي عريقة الجذور.
حاول الاقتراب مرارًا من خط النار الذي رسمته لنفسها، لكن وجله منعه، خشية أن تُغلق عليه نوافذ الأمل. كان يكنّ لها الاحترام والتقدير، كما كانت تبادله ذات التقدير، وجرى بينهما تناغم صامت، دون تخطيط، عبر الإشادة المتبادلة. لم

يشأ أن يقطع تلك الصلة الخفية، كما أن عزتها وكرامتها منعها من المبادرة.
ظل حلمه معلقًا بين التبرير والتأويل، لا يجرؤ على تجاوز الخطوط الحمراء، يلوّح لنفسه بالكارت الأصفر كلما شطّ به التفكير. ظل يدور في دوامة الشك، يعدّ محاولاته البائسة انتصارًا ذاتيًا، حتى لو اقتصر على مجرد التفكير بها. لم يتجاوز مراقبة أخبارها عن بعد، عاجزًا عن كسر مرآة الكرامة التي نصبها بينه وبينها.
ومع مرور السنين وتقدّم العمر، باتا على أعتاب العنوسة. دقّت بثينة ناقوس الخطر، وبدأ بريق عينيها يخفت، يتلاعب بها الشك، ويثقلها الانتظار. لم يبادر سعيد كما كانت تأمل، ولم تكسر هي حاجز الكرامة، فتمسكت بالحياء، بينما كبّله هو الخوف من الفشل.
وفي لحظة يأس، رضيت بثينة بالزواج من رجل غريب، لا يجمعها به توافق، كما زُجّ بسعيد في زيجة غير مقنعة من ابنة عمه. بقيت الحسرة تدور في فلك ذاكرتهما، ولم ينسَ أحدهما الآخر. ومع مرور الأيام، وولادة طفل لكل منهما، تعقّدت الأمور، وكان للقدر كلمته.
بعد عام من زواجها، اشتدّ الخلاف بين بثينة وزوجها، وضاقت به ذرعًا، حتى انتهى الأمر بالطلاق. ورغم أنها طلقة أولى، إلا أنها اعتبرتها نهاية مريرة لتجربة فاشلة. شاع خبر طلاقها، فسرّ سعيد، وتجدد الأمل في قلبه، بعد أن لسعه الزمن بتخاذله السابق. قرر أن يبادر هذه المرة، ألا يدع الفرصة تفلت من بين يديه مجددًا. فقد جرب غيرها، وجربت هي غيره، وتعادلا في الخذلان والمصيبة، وكلٌّ نال نصيبه من الألم والتعاسة.
لا ضير أن يصلحا شأنيهما، فكلٌّ منهما بحاجة للآخر، كما لو أن القدر كان ينتظر هذه اللحظة ليمنحهما فرصة ثانية.

كلاهما وقع في مطب الكرامة وعزة النفس والحياء والخوف من المجهول القادم، كلاهما ذاقا ذات الويل من نفس الصحن، كلاهما ندم على ضياع الفرصة في لحظة بهتان، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 216]}. صدق الله العظيم.

السندباد جال في البلاد وعاد مرة أخرى لبغداد. لم لا ... فلن يتخلى عن هواه مرة أخرى، الشرع يسمح بالزواج من مثنى وثلاث ورباع (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) .صدق الله العظيم.

التجربة الأولى زرعت الجرأة في فكر وقلب الطرفين، حتى لاحت شمس الود تشرق في الأفق من جديد بعد فترة السبات.

بعد نبأ الطلاق ود أن يجس نبض زوجته (أبنة عمه) قبل أن يفاجئها بنيته، ود تليين فكرها وإعِدادها لمواجهة الصدمة التي ستدوي في حضنها، فهو لا يخالف الشرع في زواجه الثاني.

إذا يجب أن تعرف أوليات العقدة كي يسهل إقناعها، وأن لم تقتنع فلن يخسر في المحفل سواها، فهو في قرارة نفسه كان قد اتخذ قراره وأبصم على الزواج من بثينة، فلن يتراجع عن عزمه لو أطبقت السماء على الأرض - هي سعادته ومستقبله، لن يتخلى عن هذا الهدف مرة أخرى أطلاقا، بعد أن تجددت الفرصة التي سرقت منه بلحظة غفلة.

سعيد وقصة القلب الذي لم يهدأ

جلس سعيد إلى جوار زوجته، يتأمل وجهها الذي ألفه، لكنه يحمل في قلبه قصة لم تروَ بعد. أراد أن يشاركها الحقيقة دون أن يصدمها، فبدأ حديثه بأسلوب قصصي لطيف:

– يا حبيبتي، هل سمعتِ عن قصة التاجر الذي أغرم بفتاة من قريته، لكن انشغاله في التجارة حال بينه وبين الزواج بها؟

– عن أي قصة تتحدث؟ احكِ لي.

– كان التاجر كثير الترحال، منشغلًا في أسفاره، فطال غيابه. لم تصبر الفتاة على فراقه، أو بالأحرى، لم يصبر أهلها على عزوبيتها، فزوجوها لرجل غريب عن القرية. الجميع كانوا يعرفون قصة حبها للتاجر، فلم يجرؤ أحد على التقدم لخطبتها. وحين عاد التاجر، بلغه الخبر كالصاعقة: حبيبته تزوجت رجلًا تعرف عليه والدها أثناء الحج. أصيب بكآبة، ثم رضخ لنصيحة أهله وتزوج فتاة من القرية، لعلّه ينسى، أو ليعوض الفراغ الذي تركته في قلبه.
– يبدو أن الأمور عادية، أين المشكلة؟
– المشكلة أن الفتاة لم تحتمل العيش مع زوجها الغريب، فطلقت بعد عام. حينها، عاد الأمل، واشتعل الحب من جديد، فقرر التاجر أن يطلب يدها.
– جميل، إصلاح لما أفسده الزمن.
– لكن المشكلة ليست فيها، بل في التاجر الذي أصبح متزوجًا. كيف سيخبر زوجته؟ كيف سيقنعها؟ وهو لا يريد أن يخسر عشرتها.
– طالما يحبها وتحبه، فليتزوجا ويضعا الزوجة أمام الأمر الواقع.
– وإن رفضت؟
– فلتتحمل وزر عنادها.
– هل ترين ذلك عدلًا؟
– ما دام لا يخالف شرع الله، فلتصبر على ضرة.
– حتى لو كانت زوجته ابنة عمه؟!
ساد الصمت، وبدأت الزوجة تستوعب المغزى...
– ماذا تقصد؟ أأنت التاجر؟ لقد غششتني! لا أريد أن أراك.

انهارت، ألقت بنفسها على الأرض، غمر الحزن وجهها، واغرورقت عيناها بالدموع. اقترب منها سعيد، يحمل كأس ماء:
– اشربي يا عزيزتي، لا تقلقي، مكانك محفوظ. أنتِ ابنة عمي، من لحمي ودمي. لكن أرجوكِ، قدّري القلب وما يهواه. لا أريد أن أغشك، ولا أن أعيش معك وأنا مشتت الفكر. لا أريد أن أخسرك، ولا أن أخسرها. وقد حكمتِ بنفسك، فأرجو أن تتقبلي الحكم كما قبلتهِ على غيرك.
مرت الساعات ثقيلة، راجعت الزوجة شريط حياتها معه، تذكرت المواقف، الأفراح، والآلام. لم تكن حياتها مثالية، لكنها لم تكن تعيسة. أدركت أنه جاملها كثيرًا، وأنها أحبته، لذا لا تريد أن تفقده.
فكرت: الحياة مع ضرة ناقصة، لكنها أهون من الوحدة. يجب أن تحافظ على بيتها وزوجها مهما حصل.
وحين استعادت وعيها، قالت له معتذرة ومباركة:
– أنت ابن عمي، أدرك أنك تزوجتني لتملأ فراغًا، لا عن حب. لكنني أحببتك، ولم أكرهك يومًا. لذا، أقر لك وأؤيد مسعاك، لا أريد أن أعيق سعادتك.
ضمها سعيد إلى صدره، وقبّل رأسها:
– وأنا أحبك، لكنني أحبها أيضًا. لا أستطيع مقاومة ضعفي أمامها. أنت زوجتي وحبيبتي وابنة عمي، وهي خليلتي وعشيقتي. لن أفرط بكما، ولن أتخلى عنكما.
وهكذا، أنهى سعيد عقدته، وقرر أن يخبر بثينة بما توصل إليه. وجد في زوجته أفضل رسول، فطلب منها أن تكون الطير المرسال، ليشركها في قراره، ويشعرها بمكانتها في قلبه.
رغم أن المهمة أثقلت مشاعرها، وافقت الزوجة الأولى على القيام بها لتثبت حبها، وتحفظ مكانتها في قلب سعيد. لم تكن

ترغب أن تتحول إلى مجرد قطعة أثاث في بيته بعد زواجه من بثينة. فأدّت دورها كرسول بينهما بإتقان، ونجحت في فتح قنوات القلب والفكر والهوى، لتُرسّخ العلاقة في أذهان المحيطين والمتربصين ببثينة.
وبعد انقضاء عدّة بثينة، وفق ما ورد في قوله تعالى:
{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} [البقرة: 228]
{وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ... فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ} [الطلاق: 4] صدق الله العظيم.

تم الزفاف بمباركة الأهل والأصدقاء، دون بهرجة، كما طلبت بثينة. دخلت القفص الذهبي الذي أعده لها سعيد، فكان دخولها كنسمة ربيع كسرت مرآة بؤسه، وجددت لحظات سعادته، وأشرقت الأضواء في سمائه. تغيرت طباعه، صار أكثر حياءً وحنانًا، وأضحت الفرحة جزءًا من أثاث البيت، حيثما حلّت بثينة، حلّ معها البهاء.
كانت هي الغزالة الهيفاء، الزهرة التي حلم أن يغرسها في جنائنه، الفاكهة التي أضاع في خضمها سنين عمره دون أن يجرؤ على الاعتراف بحبه لها. أما هي، فلم تكن أفضل حالًا، فقد غيرتها التجربة الأولى، وأدركت أن الحياة ليست نزهة، بل قرار واستقرار.
زواجها الأول كان عبئًا بمياه آسنة، جردها من الحيوية والضحكة، أنساها مفاتنها، وأحال حياتها إلى رتابة. لذا، حين دخلت زواجها الثاني، شعرت وكأنها تعيش في بيت زجاجي هش، تخشى أن يدوشه حجر طائش، فتعود إلى نقطة الصفر.

رغم حب سعيد لها، بقيت حذرة، تحيط نفسها بصمت، وتخشى أن تكون التجربة مجرد تبديل وجوه. حتى سعيد بدأ

يشك في حبها، فقرر أن يختبر مشاعرها بطريقة غريبة: دسّ ثعبانًا ميتًا في فراشه، وتظاهر بالموت.
حين رأته منهكًا، صرخت بأعلى صوتها:
- يا ويلاتاه! وا حبيباه!
غلبها البكاء، ونعت زوجها بألم، منشدةً:
- قم وأشفع لأبيك عامر، راح ضحية ثعبان غادر، أرى الدنيا ظلمة دونه، رجت النفس بقدر جائر
حين أفاق سعيد من تمثيليته، احتضنها، فرحًا بمحبتها، لكنها لم تتقبل طريقته. جردت نفسها منه، وخرجت بوجهٍ غاضب، وقالت:
- ليست بثينة من تُجرب بالوسائل الرخيصة، والله لن أعود إليك حتى ينطق العود والحجر!
- أأنتِ مجنونة؟ وكيف ينطق العود والحجر؟

غادرت دون أن تلتفت، تاركةً إياه في دوامة لغزها، نادمًا على فعلته، مشتاقًا لها، يرسل المراسيل والوساطات، لكنها لم تتنازل عن شرطها.
صار سعيد كجذع شجرة خاوية، يدور بين القرى كريحٍ تائهة، يبحث عن معنى لغزها. رقت زوجته الأولى لحاله، وتوسلت إلى بثينة، لكن دون جدوى.
وذات يوم، التقى بعجوز تائهة، دلّها على طريقها، وسألها:
– يا حاجة، متى ينطق العود والحجر؟
– ينطق العود حين يشكو الوتر للوتر، وينطق الحجر حين يدق الحجر بالحجر.
صاح سعيد:
– صح لسانك! إنها الربابة والرحى!
قبّل رأس العجوز، وصاغ شعرًا، وغنى قرب دار بثينة:

جـودي يـا روح لوصـل المحـب جـودي - غـص القلـب ببجـاي والرحـى خـدودي - يـا عـود بسـك حـزن ونـوح- حتـى الربالـة جزعت - قولي متى تعودي

حـين سـمعت بثينـة نغـم الربابـة، رقّ قلبهـا، وعـادت إليـه، مرتميـةً في أحضانه، بعدما علمت أنه أدرك قدرها، وأحسن فهمها.

المحبـة هـي اللعبـة الوحيـدة التـي يشـترك فيهـا اثنـان، يتعـادلان فـي المكسب والخسارة، ولا يُحسم فيها الفوز إلا بالصدق والوفاء.

---

* فوز حبيبة الشاعر الأحنف بن قيس

* مـن مـوروث الوالـدة العزيـزة طيـب الله ثراهـا وأدخلهـا فسـيح جناته.

12- المقصلة*

كانت جزيرة العين مملكةً عظيمة، تلك التي قصدها التاجر الأمين في رحلته الأخيرة، باحثًا عن السكينة وسحر الشواطئ وكثافة الأشجار. هناك، حيث هدأ صخب الحياة، قرر أن يستقر بعدما كثرت أمواله وكلّت قدماه من الأسفار.
قضى حياته أشبه بالرحالة ابن بطوطة، عاشقًا للمغامرات، باحثًا عن النادر والمميز من التحف، مغذيًا فكره بالمعرفة والثقافات، متأملًا في غرائب العادات والتقاليد. ومع بلوغه الأربعين، قرر أن يختتم رحلاته بالاستقرار في الجزيرة، وأن يكلل سعيه براحة البال بزواج من امرأة من عامة الناس.
أغرته جزيرة العين بجمالها الأخّاذ؛ جبالها الشاهقة كستائر خضراء تتدلى من جوف السماء، تحيطها شواطئ زرقاء، يرفأ بها رمل بلون الشفق، كأنها لوحة رسمتها يد الخيال. شعر أن جسده قد أرهق، وأن روحه تاقت للهدوء، فاختار أن يكتب مذكراته هناك، حيث يجد ذاته.
ولعشقه الأزلي للبحر، صار يتردد إلى الشاطئ كل مساء، يستنشق عبير الموج، ويتأمل السفن، ويغوص في صفاء الرمل. البحر كان مرآة حياته منذ الصغر، فصار يقضي وقته في صيد الأسماك والسباحة والاستجمام تحت أشعة الشمس الدافئة. كان يهجس بذاته كطائر النورس، لا يقوى على الابتعاد عن الشاطئ.
وبينما يكتب مذكراته، عادت به الذاكرة إلى أول وجه جذب انتباهه، أول تحفة اقتناها، أول جزيرة زارها، وأول قبلة اهتزت لها أركانه. ذكريات عرجت به إلى أيام المراهقة، حين كان يلتقي ابنة الجار قرب شجرة الصفصاف، تلك الفاتنة السمراء، بشعرها الأدهم الممدوج كظلال الأشجار،

وعينيها الواسعتين كعيون المها، وقوامها الممشوق كغصن الخيزران.
كانت أول من لفت انتباهه، قبل أن يزجه والده في تجارة بعيدة. احتضنها يومًا، وطبع قبلة على خدها، فخرّت بين يديه خجلة، لم يقاوم فيض حسنها، ارتعشت أوصاله، وتاه في لغز القبلة. ارتعدت منه، قاومت إعصاره، فلتت من قبضته كشمس مغشاة بغيوم الخجل، تاركة جمرة القبلة تصلي خدها بلظى النار. أحست بخدش في حيائها، لكنها أسرّت له نظرة إعجاب مغشاة بابتسامة شفيفة. كان حينها ابن العشرين.
ومنذ تلك الحادثة، لم يضطرب قلبه بإشارة حب صادقة. صار حنينه يصب في رحم تلك الأيام الخوالي التي أهدرها خلف جني المال، وكأن الوحدة أيقظت نيران الأمس، فحرّكت أمواج تيار الصبا الراكدة. لقد أضاع عمره بين مدّ وجزر السنين، يشتط كالموج بين المركب والسواحل.
بات ينفث شجونه زفير حسرات في دخان سيجارته، لترسم له هالات بؤس في لوح القدر، وكأنَّ السنين عاقبته على هدر الفرص..
تذكر أمه وهي تخيط له ثوبه، وتعدّ له فطوره قبل ذهابه إلى المدرسة، وتذكر والده الذي علّمه فنون التجارة حين كان يصحبه في رحلاته المكوكية بين الشمال والجنوب، حتى غدت له دراية كاملة بالمشتريات ومواسمها. تلك الآفاق صنعت منه رجلاً حرًّا، شحذت فيه همة الرزق، وعلّمته ألا يركن إلى الظل ولا يستكين إلى رزقٍ آتٍ دون سعي. صار أينما حلّ يقرأ الأوضاع بفطنته وإلمامه، يبسط نفوذه بخطى واثقة خلال مراحل عمره.
استغل هوايته في الجزيرة، فجمع بين التجارة الحرة وصيد السمك في أوقات الفراغ، كي لا يغلبه الروتين، ولا تمضي أيامه في رتابة سقم السنين. وبعد أن استقر به المقام، بدأ يفكر

بامرأة تجزل همومه، وتضفي على عمره الباقي لمسة سعادة وراحة بال، قبل أن يمضي به قطار العمر إلى محطته الأخيرة. أضحى يبحث عن سيدة تعينه على وحدته، يدق مسمار عزوبيته في لوح كل امرأة تصادفه على شاطئ البحر، لعلّ واحدة منهن تلتقط نداء قلبه.
وذات مساء، دون موعدٍ مسبق، التقطت هواجسه صورة فتاة غاية في الرقة والجمال. بدت مياسم حسنها تتراقص في وجهها المبلول بمياه البحر، حورية بخصرٍ أهيف وقوامٍ رشيق، يلمع شعرها كخيوط الشمس، ويعكس الضوء ككريستال صافٍ. كانت ترتدي ثوبًا براقًا بلون البحر، يطابق لون عينيها الفيروزيتين، وفي وجهها سحرٌ متوهج يحكي قصة كبرياء يليق بها، يوائم مشيها وجمال قوامها.
تساءل: من تكون؟ من أي أرض بزغت؟ كيف يبهرها بإعجابه؟ لقد ملأت فضاء عينيه، وشغلت خواطره، فكيف سيكون شكل الاستجابة حين ينفض الغبار عن مشاعره؟ لم تمنعه سنوات عمره الأربعين من أن يفكر بفتاة تصغره بعقدٍ من الزمن، فقد رأى فيها فرصة مواتية، ربما الأخيرة في عمره.
علق صورتها على جدران ذاكرته، مدّ إليها نظرة إعجاب، واستحوذ على معانيها، اقترب من وهج النار وعيناه لا تبرحان قوامها الرشيق. تحركت مشاعره من موضع السكون، وزفرت آهاته فتيل صمتها... تبادلا النظرات، وأدرك أن سنارة صيدها قد تلقفته، كما أدرك أن سنارته علقت بزعانفها.
لم تهمله في قرارة نفسها، دخل أفق مزاجها، فهي تجيد فن إدارة اللعبة. ترى... من سيصطاد من؟
يا ترى، ما ذنب الفتاة إن كانت جميلة؟ وما ذنب الشاب إن أُسر بفتنتها؟ الله خلق الإنسان ضعيفًا، تحكمه الأهواء وتدفعه

الظروف، تسيّره موجات الرغبة وفق إيقاعها ودفقها. صار يعبر عن نفسه بافتراضات تبرر سلوكه، وتضفي على مبادراته قناعة داخلية، حتى أضحى يأخذ بزمام الأمور إرضاءً لغوايته.
لم تهزه فتاة من قبل كما هزته تلك الحورية. ربما لسلطان العمر يدٌ في خلق الفرصة، وربما للمعرفة والثقافة التي اكتسبها أثرٌ في هذا الهيجان غير الطبيعي الذي اجتاحه. ربما تغيّر شعوره بعد استقراره، فراح ينصب خيمته على شاطئ الصبر، منتظرًا سفن أحلامه لترسو في مرافئها.
شغلت الحورية فكره، أرهقت ظنونه، كيف السبيل إلى جوهرة تتلألأ أمامه وهو لا يملك مفاتيح قلبها المقفل؟ راح يخطط بإمعان، يبحث عن خطوة جريئة، وقفة جدية تلفت انتباهها، تجيز له دخول معبد الشمس قبل أن تُزف إلى بحر الغروب.
كانت تأتي إلى الشاطئ كل مساء، لا تغادره عندما تغرب الشمس، كأنها لا تأتي إلا لتغويه. وكان ينتظرها وكأنه عرف غايتها، تجلس في ذات المكان، تتأمل أن يشاغلها، أن يحرك موجها، حتى هدأت الأشجان، وعرف كلٌ غاية غريمه.
وفي لحظة، تبادلا النظرات، فابتسمت له. أوقدت شرارة عاطفته، مسحت دكنة حيرته، كانت ابتسامتها كرصاصة خرقت حواجز قلبه، أبهجت فكره، كشطت همه عن قيعان ظنه. لم يستطع مجاراة عصفها المفاجئ، فالخجل جنح به، لكنه أطلق ابتسامة خجولة، أرسلها بلطافة العاشق إلى حمامة أحلامه.
قد تكون ابتسامتها عابرة، لكن جمالها السادي غير عادي. أدرك أنه بحاجة إلى عمل جاد يبجل قدرها، يشعرها بقيمتها. ومن خلال مراقبته، اكتشف أنهما يشتركان في صفة الوحدة،

كلٌ منهما أسير همه. ذلك السكون العائم بينهما لن يدوم، فلا بد من حركة تمنح المياه الراكدة روحًا جديدة.
تقدم منها بخطوات مهزوزة، يحمل وردة بيضاء، عربون معرفة، تعبر عن بياض قلبه وصدق نيته. كان صامتًا، لكن وجهه فاض بما يجيش به قلبه، وترجم كل ما يود قوله. أخذت الوردة، شمتها، وكأنها بفعلتها تلك أجهشت على هاجس الخوف والخجل، فبثت موجة حبور في أوصاله، وساد الأجواء صمتٌ عاصف.
عرّفها باسمه وعمله، عبّر عن إعجابه، حدثها عن مغامراته ورحلاته وتجارته، ووعدها بهدية ثمينة من آثار الأمم. بادلته المعرفة والمشاعر، عرّفته باسمها "وردة"، دار بينهما حديث سلس شيق، لم يخرج عن دائرة الإعجاب والثناء. كلمته عن صباها، وأهوائها، سرّت به وسرّ بها، تعانقت النظرات، تصافحت الأيادي، وانبلجت لواعج الشوق والهيام.
نثر لها الأشعار، شرح لها رغبته، استغرق في خيلائه، عصفت به الأفكار إلى جنة الفردوس، شعر أنه قريب من أن يلقف حظه، وهي سراج مسراه.
مضى شهرٌ مفعم بالرجاء، يغمرها في كل لقاء بمشاعره وهداياه، يحكي لها قصص مغامراته، استأنست بحديثه وثقافته، وتوضحت دلائل الإعجاب المتبادل. لملم شتات ظنه، وضبها في سرادق قلبه، وعرض عليها الزواج. لكنها أمهلته قائلة:
– لازلنا في بداية المشوار، نحتاج لوقت أطول.
وفي أحد الأيام الباردة، جاءت تمشي الهوينا، وفي يدها وردة جورية حمراء، يفوح منها عبق أنفاسها الشذي. قدمت له وردتها بامتنان وحنان، وابتسامة ساحرة، ثم حضنته وقبّلته من خده، وقالت:

– هذه الوردة دليل محبتي لك، سأذهب في رحلة مع والدي لأسبوع، بعدها أقرر زواجي منك. احتفظ بها حتى أعود إليك بفتنة العاشقة.
صعقته كلماتها، هزت كيانه، تركته كالطير المذبوح يرتجف في مكانه. أحمر وجهه، أغدقت ظنونه بأمل باهت، لكنه قدر ظرفها، قبلها، وتركها تنسلت من بين يديه لفيض الزمن.
– سأنتظر مجيئك على أحر من الجمر.
– سأشتاق لك، مع السلامة.
– مع السلامة...
مضت الأيام جزافًا، ذبلت الوردة، ولم يهل قمر العيد. ترى، ما الذي منعها من العودة؟ لماذا غاصت في غياهب الجب؟ هل للوردة الحمراء مغزى؟ أم أن عائقًا ما حال دون حضورها؟ بغيابها اسودت الدنيا في نظره، حتى البلابل والعصافير ما عاد يسمع لها تغاريد في ذاكرته.
بات يبحث بين ذكريات الأمس عن خيط دلالة يصل به إليها، لكنه لم يجرؤ أن يسأل عنها، فلم يعرف من يثق بهم. لكنها، في الحقيقة، كانت معروفة لكل أهل المملكة. تلك الحسناء هي عشيقة الأمير، أسطورة خيال على ألسنة الناس، لذا تجنبها الشباب، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها.
كانت تنزل للبحر في خلوتها، تطرد الوحشة التي تلازمها، خاصة حين يكون الأمير منشغلًا بأمور المملكة أو برحلاته البعيدة. كانت تشعر بالوحدة، فتمضي للاستجمام، أو تسير بين الأشجار الباسقة، تستمتع بتغاريد العنادل وزقزقة العصافير. وحين شعرت بأن شخصًا غريبًا يتبعها، فرحت بذاتها، أرادت أن تكسر مرآة الوحدة والروتين، لترى نفسها بمرآة أخرى غير مرآة الأمير. فالمرأة تعشق من يفتتن بها ويتغزل بها.

أدركت بفراستها أن هذا الغريب صادق ونبيل، فاستمالت إليه. فأهل المملكة لا يجرؤون على محادثتها، فللأمير عيون ومجسات في كل زاوية، وإن غاب بجسده، حضر بسلطته. وجدت في التاجر فرصة للتنفيس عن ذاتها، وزهق الوحدة التي كبّلتها حتى عودة الأمير من رحلته. لقاءات بريئة، لا يشوبها مكروه، لكنها أرادت أن تثبت للأمير أن تركها عرضة للوحوش يهدد أمنها، ويستوجب اهتمامه.

﴿إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ﴾ صدق الله العظيم. بدأت الألسن تلوك الحكاية، إشاعات ونميمة، خاصة من أولئك الذين يضمرون الغيرة والحسد. تعقّبها المخبرون، ينقلون كل صغيرة وكبيرة إلى الأمير، حتى اكتملت عناصر القصة، وجُمعت فصوص المسبحة، وعرف القاصي والداني بقصة الأميرة والتاجر الأمين.

حين بلغ الأمير الخبر، لم يتردد. ولإسكات الألسن، وقطع دابر الحديث، قرر أن يقطع رأس الأفعى التي تجرأت على أملاك المملكة. فالأميرة ليست امرأةً عادية، بل جزء من ممتلكاته، رمز سلطانه، لا يحق لأحد أن يقترب منها.

ألقت الشرطة القبض على التاجر، سُحل في الطرقات، أُهين، واستغرب الأمر، لم يعلم سبب اعتقاله. ساقوه إلى المحكمة، فحكم عليه القاضي بالإعدام بالمقصلة، بتهمة التعدي على ممتلكات الأمير، ليكون عبرة لمن يعتبر.

تحدد يوم القصاص، ودُعي الناس ليشهدوا. أذنت النهاية، ولم يكن يدرك أن الجميلة تخبئ في ثناياها سر موته، ولم يعلم أن الوردة الحمراء كانت إشارة للدم، لا للحب. وقع في شرك الأميرة، وحظّه السيئ قاده إلى حتفه.

وفي يوم القصاص، احتشد الناس. منهم من ترحم عليه، ومنهم من كال له الشتائم، متعاطفين مع الأمير، فذلك

أميـرهم، رمـز هيبـتهم، لا بـد مـن صـون حقوقـه، وإلا عمـت الفوضى.
وقبـل أن يُشـرع الجـلاد فـي تنفيـذ الحكـم، سـألوه عـن رغبتـه الأخيرة، كما جرت العادة في المملكة.
قال: "أريد مقابلة ورد."
سألوه: أي ورد تقصد؟
قال: الفتاة التي جرتني للمقصلة.
اسـتُدعيت الأميـرة، وقفـت أمامـه وقفـة الظـالم أمـام المظلـوم، القيـد يحـز سـاقيها، والعـار يثقـل رأسـها. دار بينهمـا حـوار صـامت، عاتبهـا عتـاب الميـت، لا يعلـم أنهـا الأميـرة. كأنـه قـال لهـا: – أيـة سـعادة ستشـعرين بهـا، وأنـا نـديم كأسـك وكـوابيس أحلامـك؟ كأنـه لـف حبـل المشـنقة علـى عنقهـا، فلابـد لهـا مـن ضمير يفيق.
وفـي لحظـة، هـوت المقصـلة، وسـقط الـرأس. نكسـت الأميـرة رأسها، ومنذ ذلك اليوم، صار الناس يكنّون الأميرة بالمقصلة.

13- الوفاء

في صباحٍ هادئ، استفاقت هيونا على وقع حلمٍ كظيم، ترك في نفسها أثرًا لا يُمحى. كان حلمًا غريبًا، أسعدها للحظة، ثم أغرقها في حزنٍ طويل. حلمٌ جميلٌ في وقعه، مؤلمٌ في أحداثه، ثقيلٌ في معناه، رخيمٌ في مضمونه. أعادها إلى أيام الطفولة، إلى زمنٍ كانت فيه مدللة، تعيش في بيتٍ كبيرٍ في ضواحي القرية، برفقة والديها وكلبها الأبيض، تنعم بالدفء والحنان.

لكن القدر، ذلك الزائر الذي لا يُستأذن، باغتها ذات يومٍ عاصف. حين انزلقت عجلة والديها من فوق تلةٍ إلى بركة ماء، فاختطفهما الموت في لحظةٍ واحدة، وتركها يتيمةً، بلا سندٍ أو قريب. كانت عائدة من المدرسة برفقة صديقتها ماغي، حين بلغها الخبر. الصدمة كانت أكبر من أن تُحتمل، كسرتها، وألقت بها في حضن الميتم، حيث الوحدة والحزن والذكريات.

جلست في سريرها، وأجهشت بالبكاء. فاضت عيناها بسيلٍ من الدموع، وارتسم الحزن على محياها. انتبهت زميلاتها إلى نحيبها، فتجمعن حولها، يواسِينها، يحاولن فهم سبب شجنها. سألنها بلطفٍ وقلق:

– يا هيونا، ما بكِ؟ هل أصابك مكروه؟ هل أنتِ مريضة؟

وبعد أن هدأت، بدأت تروي لهنّ قصتها. تحدثت عن بيتها، عن والديها، عن كلبها الأبيض، عن الأيام الجميلة التي كانت

تعيشها قبل أن يختطفها القدر من بين أحضانهم. تحدثت عن الحادث، عن اليوم الثلجي العاصف، عن البركة التي ابتلعت كل شيء. لم يكن لها أقارب، ولا إخوة يعتنون بها، فكان الميتم هو ملاذها الوحيد.

رغم أنها كانت صغيرة، لم تتجاوز العاشرة، إلا أن ذاكرتها بقيت حية، تحتفظ بكل التفاصيل: البيت، الحديقة، صوت والدتها، دفء الأب، لعبها مع ماغي، ضحكاتهم، وكلبها الذي كان يركض خلفها في الحقول.

وفي ذلك الصباح، وبينما كانت تنظر من نافذة غرفتها إلى حديقة الميتم، شدتها زهرة الأوركيدا. كانت والدتها تعتني بها في حديقة المنزل، تسقيها، تنظف جذورها، تقلم أوراقها. شعرت هيونا وكأن الزهرة تخاطبها، كأنها تحمل روح والدتها. فصارت تزورها كل صباح، تسقيها، تعتني بها، تتحدث إليها بصمت، تستعيد معها ذكرياتها.

نشأت بينهما علاقة خاصة، ألفة ومحبة. صارت الأوركيدا أكثر بهاءً، وكأنها ترد الجميل لهيونا بشذى أنفاسها، بطراوتها، بحيويتها. كانت الزهرة تنمو، وتزدهر، وتزداد جمالًا، وكأنها تعيش على حنان هيونا.

وفي لحظة شرود، تذكرت ماغي، صديقتها التي كانت لا تفارقها. تخيلتها تركض معها بين الأشجار، تلهو، تضحك، تتبادل معها الآراء، تذهبان معًا إلى المدرسة. شعرت بالشوق إليها، فصارت تناجيها من خلف النافذة، تبحث عنها في الأفق، لكن الطيف تلاشى، ولم تجد له أثرًا.

كانت ماغي تزورها كل شهر، لكن غابت لشهرين، مما أقلق هيونا. سألت عنها، فتلقت رسالة منها تعتذر فيها عن الغياب، وتطلب زيارتها في المشفى، إذ ألم بها مرض أقعدها.

قدمت هيونا التماسًا لإدارة الميتم، فوافقت على زيارتها برفقة إحدى العاملات. حين التقتا، احتضنتها بحرارة، وفرحت ماغي كثيرًا، وشعرت بتحسن. لاحظ والدا ماغي عمق العلاقة بين الفتاتين، فتمنيا لو كانت هيونا أختًا لماغي.

وذات يوم، أخبرتها مديرة الميتم أن عائلة ترغب في تبنيها. رفضت هيونا في البداية، فقد تعلقت بزميلاتها، لكن المديرة أقنعتها بأن الأسرة تمنح اهتمامًا خاصًا، على عكس الميتم. وافقت على مقابلة العائلة، وما إن دخلت المكتب حتى فوجئت بأنها عائلة ماغي! تهلل وجهها، وأرتمت في أحضانهم، وشعرت بدفء الوالدين من جديد.

تبنتها العائلة نزولًا لرغبة ماغي، وبدأت حياة جديدة. كانت العائلة غنية، مكتفية، لا ينقصها سوى سعادة ماغي، التي اكتملت بوجود هيونا. نظمت الأسرة برنامجًا أسبوعيًا للترفيه، شمل زيارات للمتاحف، المكتبات، وصيد السمك. شعرت هيونا بأنهم عوضوها عن فقد والديها، حتى أنها صارت تنادي مربيتها بـ"ماما"، مما أسعد والدة ماغي كثيرًا.
وذات يوم، تذكرت زميلاتها في الميتم، فطلبت من والدتها زيارتهم. وافقت، واصطحبتها برفقة ماغي، حاملين الهدايا والملابس والحلوى. تركت الزيارة أثرًا طيبًا في نفوس الفتيات وإدارة الميتم.
وفي طريق العودة، سألت والدها توماس بلطف:

– يـا أبـي، هـل يمكننـا مسـاعدة أطفـال الميـتم فـي التعلـيم؟ أنـا ومـاغي نـذهب للمدرسـة، بينمـا هـم لا يحظـون بهـذه الفرصـة. أفكـر بتحويـل دار والـدي المهجـور إلـى مدرسـة لهـم. هـل تحقـق لي هذا الحلم؟

احتضنها وقبل رأسها، وقال:
– نعم يا صغيرتي، سيكون صدقة جارية في ميزان والديك.

فـرح تومـاس بـالفكرة، وقـرر دعـم المشـروع، وأسـماه "دار هيونا للتعليم".
وبعد افتتاح المدرسة، شعر بفخر كبير، وقال لزوجته:
– لقـد علمتنـي هـذه الفتـاة درسًـا فـي الحيـاة. السـعادة لـيس لهـا مثيـل. المـال لا يصـنع السـعادة، بـل طريقـة صـرفه هـي التـي تفعل.

نظـر إلـى هيونـا نظـرة إعجـاب، تركـت فـي نفسـها بصـمة ثقـة، مثلمـا تركـت هـي بصـمة فـي قلبـه منـذ أن دخلـت حيـاتهم. هكـذا، رغـم مأسـاتها، اسـتطاعت أن تـزرع الفـرح فـي قلـوب مـن حولها، وتعيد رسم الحياة بألوان الوفاء والإيثار.

النهاية

للكاتب عشرات الكتب بين
رواية ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة من العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- عقاب الذات
9- الاقدام المتكسرة
10- عواصف الجنين
11- الفراغ
12- القمة

وذات يوم، أخبرتها مديرة الميتم أن عائلة ترغب في تبنيها. رفضت هيونا في البداية، فقد تعلقت بزميلاتها، لكن المديرة أقنعتها بأن الأسرة تمنح اهتمامًا خاصًا، على عكس الميتم. وافقت على مقابلة العائلة، وما إن دخلت المكتب حتى فوجئت بأنها عائلة ماغي! تهلل وجهها، وأرتمت في أحضانهم، وشعرت بدفء الوالدين من جديد.

تبنتها العائلة نزولًا لرغبة ماغي، وبدأت حياة جديدة. كانت العائلة غنية، مكتفية، لا ينقصها سوى سعادة ماغي، التي اكتملت بوجود هيونا. نظمت الأسرة برنامجًا أسبوعيًا للترفيه، شمل زيارات للمتاحف، المكتبات، وصيد السمك. شعرت هيونا بأنهم عوضوها عن فقد والديها، حتى أنها صارت تنادي مربيتها بـ"ماما"، مما أسعد والدة ماغي كثيرًا.
وذات يوم، تذكرت زميلاتها في الميتم، فطلبت من والدتها زيارتهم. وافقت، واصطحبتها برفقة ماغي، حاملين الهدايا والملابس والحلوى. تركت الزيارة أثرًا طيبًا في نفوس الفتيات وإدارة الميتم.